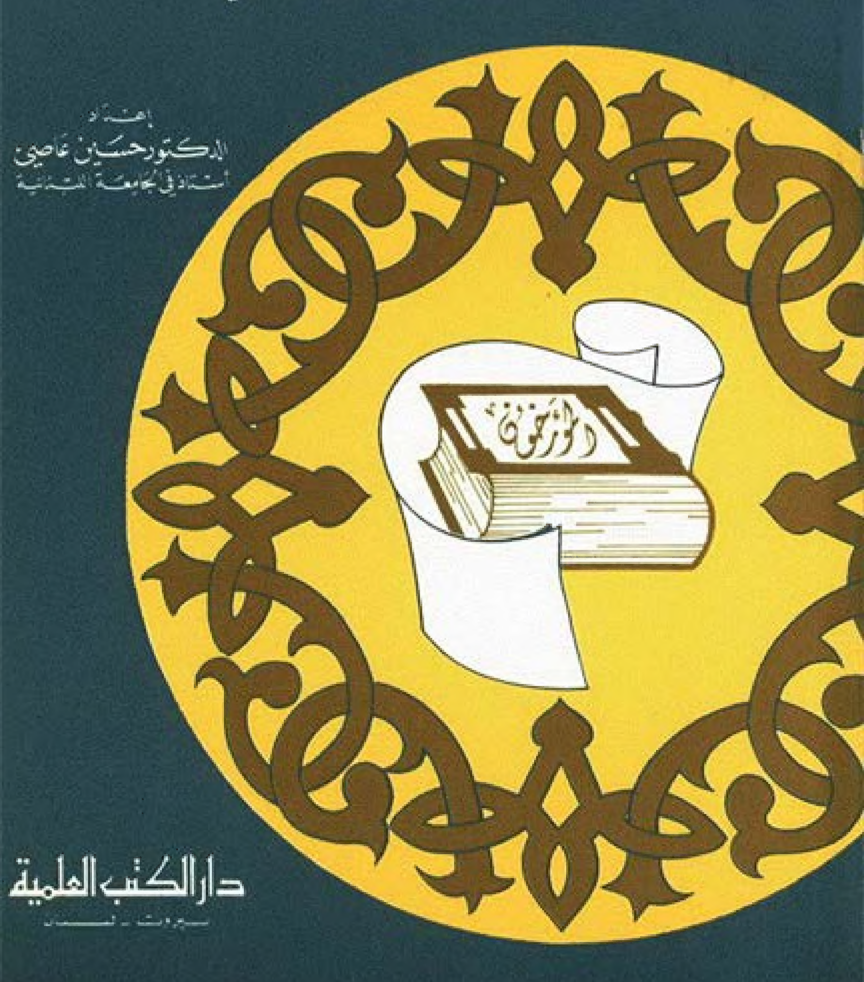
أعلام مؤرخي العرب والإسلام

محيي الدين بن عبد الظاهر

عصره وتراثه التاريخي

إعداد
الدكتور حسين عاصي
أستاذ في الجامعة اللبنانية



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

أعلام مؤرخي العرب والإسلام



عصره وتراثه التاريخي

إعداد

د. حسين عاصي

أستاذ في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

ورثت القاهرة في العصر المملوكي بغداد في زعامتها للمدارس التاريخية الإسلامية وحتى في خلافتها العباسية. وقد عمل على التاريخ في مصر في العهد المملوكي فئات ثلاث هم علماء الدين وأولاد الجند وموظفو الدواوين. إلى هذه الفئة الأخيرة ينتمي مؤرخنا. وقد اهتم أفرادها بصورة خاصة بأمرين هما سير الحكام والسلاطين، وتعليم ناشئة الديوان صناعة الكتابة وأدواتها الثقافية والتي يشكل التاريخ جانباً هاماً منها. وكان ابن عبد الظاهر كاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء في بلاط الملك الظاهر بيبرس ثم لدى السلطان قلاوون، كما كان أحد «البلغاء المذكورين» و«شيخ أهل الترسل» على ما وصفه المؤرخون. وإذا كان صحيحاً أنه سلك الطريقه الفاضلية في الإنشاء شأن العماد الأصفهاني، لكنه لا يلوي الأحداث في سبيل السجع أو يفضل متابعة البهرج اللفظي على تصوير الواقع كالقاضي الفاضل أو العماد، فالحقائق التاريخية لدى ابن عبد الظاهر لا تغرق في

ركام اللفظ والصناعة والبيان اللغوي، وإن اتخذ التاريخ تكأة لبيانه وظل فيما كتب ابن البلاط البار المسبّح بمجد السلطان، فقد ترك لنا على أي حال عدداً من المؤلفات التاريخية التي تسجل أحداث عصره. ولما كان كاتب السر وعمله أن ينشىء الكتب الرسمية الصادرة ويحفظ الواردة، وأن يقوم على تسجيل الاعمال والقرارات اليومية مع الأحداث الهامة للحكومة، فإن تبييض هذه الأعمال في نسق متصل مع بعض المقتطفات الأدبية والشعر والافكار هي التي شكلت مؤلفات ابن عبد الظاهر التاريخية، والسير المتتالية التي كتبها حول الظاهر وقلاوون والأشرف، بالإضافة إلى مؤلفات أخرى ديوانية وأدبية. وقد تميزت السير التي كتبها للسلاطين الذين عمل في ظلهم بالأصالة والتفرد بالمعلومات مما جعلها أشبه بالمصادر الأمهات التي لا يستغني عنها مؤلف بعدها، والتي تغذي المؤلفات التالية لها، بل والتي تعاصرها أيضاً، فهو مصدر لا يستغني عنه كل من يؤرخ للعصر المملوكي الأول وسلاطينه الكبار الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل.

وستلقي هذه الدراسة بعض الأضواء على المؤرخ ابن عبد الظاهر من خلال الأبحاث التي تتمحور حولها آملين أن نكون قد وفينا بالقصد.

الفصل الأول

ملامح التاريخ السياسي والاجتماعي
وميزات التأليف التاريخي في عصر
ابن عبد الظاهر

١ ـ انتقال السلطة إلى المماليك البحرية

عاصر محي الدين بن عبد الظاهر خلال حياته المديدة دولة المماليك البحرية وأرخ لحكم ثلاثة من سلاطينها هم: الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل بن قلاوون. وقد حكمت هذه الدولة ما يقرب من قرن ونصف (٦٤٨ ـ ٧٨٤ هـ = ١٢٥٠ ـ ١٣٨٣ م) توالى على الحكم خلالها أربعة وعشرون سلطاناً، منهم من طالت سلطنته واستقرت سنوات، ومنهم من لم يلبث في الحكم إلاّ بضعة أيام أو بضعة شهور، أو كان صبياً لم يبلغ الحكم، فقام بأمره نائب للسلطنة.

والمماليك ليسوا في الأصل سوى أرقاء يباعون ويشترون. غير أن هذه التسمية اقتصرت في معظم الدول الإسلامية على فئة من الرقيق الأبيض يشتريهم الخلفاء والوزراء، أو القواد والسلاطين وغيزهم من أولي الأمر وأهل المكانة واليسر من أسواق النخاسة الرائجة حينذاك في الشام والعراق ومصر. من أجل تكوين فرق عسكرية خاصة بهم في أيام السلم، وإضافتها إلى الجيش العام في زمن الحرب[١] حتى صاروا في نهاية المطاف الاداة الحربية الوحيدة في بعض الدول.

وقد توسعت مصر في استخدام المماليك قبل قيام دولتهم فيها بأمد طويل، فبعد أن أمر المعتصم بالله العباسي (٢١٨ ـ ٢٢٨ هـ/٨٣٣ ـ ٨٤٤ م) واليه على مصر كيدر باسقاط العرب من ديوان الجند وقطع أعطياتهم منه[٢]، صار جند مصر وولاتها من المماليك الأتراك أو ذراريهم[٣]، ومن

(١) عن نشوء الرق ومصادره يستحسن الرجوع إلى
ـ ويل ديورانت: قصة الحضارة المجلد الأول، الجزء الأول ص ٢٧.
ـ أحمد شفيق: الرق في الإسلام ترجمة أحمد زكي ص ٧ ـ ٥٧.
ـ عبد السلام الترمانيني: الرق ماضيه وحاضره ١٥ ـ ١٨.
(٢) الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة ١٩٣.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط ١/١٥٢.

اولئك أحمد بن طولون الذي أصبح حاكماً على مصر سنة (٢٥٤ هـ/٨٦٨م)[١] والذي اعتمد على أبناء جنسه التركي في ولايته، وأكثر هو وابنه خمارويه من شراء المماليك الأتراك حتى أصبحت عدّتهم أربعة وعشرين ألف مملوك، مما اضطره إلى بناء ثكنات لهم أضحت مدينة فيما بعد، وسميت القطائع[٢].

ولما تأسست الدولة الأخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ/٩٣٥ ـ ٩٦٩ م) سار محمد بن طغج على سنة الطولونيين في اصطناع المماليك الأتراك حتى قيل أن مماليكه بلغ عددهم ثمانية آلاف مملوك يحرسونه بالتناوب عندما ينام[٣] وإن كان يبدو أن الجيش الأخشيدي اشتمل على عدد كبير من العبيد السود بدليل حلول أحدهم وهو أبو المسك كافور محل الأخشيد في حكم مصر.

ولما قامت الدولة الفاطمية في مصر، أضاف الفاطميون نوعاً جديداً من المماليك جاؤوا بهم من المغرب، وهم الصقالبه، إلى جانب الترك والسودان، كما كانوا أول من

---

(١) الكندي: مصدر مذكور ٢٠٢.

(٢) المقريزي: الخطط ١/٩٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢/٢٥٦.

وضع نظاماً تربوياً للمماليك في مصر[1] . . ثم انتهت هذه الدولة بقيام الدولة الأيوبية علي يد الناصر صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م، وهي دولة كردية الأصل كما هو معروف، ولكنها جاءت عن طريق الدولة السلجوقية، ومماليكها، ونقلت عنها كثيراً من عاداتها وأنظمتها التركية المشرقية وطبقّتها في مصر والشام لأول مرة. ولقد اعتمدت الدولة السلجوقية منذ نشأتها على المماليك من الترك، وورث هؤلاء سياستها ومراميها.

سار الأيوبيون على سنّة السلاجقة، وأتابكتهم [2] بالاكثار من المماليك الأتراك واستخدامهم في الجيش. وشاركت طوائف المماليك الأسدية والصلاحية والعادلية[3] مع الأكراد والعرب في كل العمليات الحربية التي خاضها صلاح

(١) المقريزي: الخطط ١/٤٤٣ ـ ٤٤٤ و٢/١٩٤.

(٢) جمع اتابك، واتابك لفظ تركي مركب من كلمتين: أتا بمعنى أب، وبك بمعنى السيد أو الأمير أي الأمير الأب أو أب الأمراء. وقد أطلق هذا اللقب في عهد المماليك على مقدم العساكر أو القائد العام، وكان يسمى أتابك العسكر.
ـ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا ٤/١٨.

(٣) المماليك الاسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين الأيوبي، أما الصلاحية فنسبة إلى السلطان صلاح الدين، والعادلية نسبة إلى شقيقه العادل الأول الأيوبي.

الدين ضد ملوك الشام وضد الصليبيين [1] . كما قامت بدور كبير كذلك في احداث الخلاف والمنازعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي عقب وفاة صلاح الدين عام ٥٨٩ هـ/١١٩٣ م. فناصرت المماليك الصلاحية العزيز عثمان بن صلاح الدين وولده المنصور، فيما ناصرت الأسدية عمه العادل وظل الخلاف قائماً بين الصلاحية والأسدية حتى تغلب العادل ووحدّ كلمة الأسرة الأيوبية، فكان تسلطنه نصراً للأسدية [2] في حين آلت حال الصلاحيّة إلى ما آلت إليه حال أبناء صلاح الدين وأحفاده من الضعف.

وكان طبيعياً أن تزداد أعداد المماليك الأتراك فترة النزاع بين أبناء صلاح الدين وعمهم العادل، وأن يستمر سلاطين بني أيوب على استجلاب المماليك لتغذية جيوشهم، لذا يطفح تاريخ الأيوبيين بأسماء المماليك العزيزية نسبة إلى العزيز بن صلاح الدين، والعادلية نسبة إلى السلطان العادل الأول، والأشرفية نسبة إلى الأشرف موسى بن العادل، والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل، والصالحية نسبة إلى الصالح أيوب بن الكامل وهكذا. . . وقد تدخلت هذه الفئات المملوكية في إقامة السلاطين وعزلهم، فبعد وفاة

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ١/ ٧٠ ـ ١٥٢.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ١٢٨.

العادل الأول سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨ م، كرهت العادلية تولية ابنه الكامل وأرادت أخاه المعظّم، فقبض الكامل بعد تسلطنه على كثير من أمرائهم وصادر أموالهم [1] . وعندما توفي الكامل سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م خلفه على العرش ابنه الأصغر العادل الثاني فيما بقي ابنه الأكبر وهو الصالح أيوب على ولايته بالبلاد الفراتية [2] . غير أن المماليك الكاملية لم يرضوا بما تمّ، فخالفوا المماليك الأشرفية وقبضوا على العادل الثاني، في بلبيس، وهو في طريقه لمحاربة قريبه صاحب الكرك، ثم خلعوه سنة ٦٣٧ هـ/١٢٤٠ م غير أن هاتين الطائفتين اختلفتا فيما بينهما حول من يخلف العادل الثاني، فمالت الأشرفية إلى عمه إسماعيل بن العادل الأول، على حين أيّدت الكاملية وهم الأقوى شوكة، الصالح أيوب. فلم يسع الأشرفية إلاّ موافقتهم واستدعي الصالح أيوب أخيراً كي يتولى السلطنة في مصر عام سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤٠م/ [3] .

(١) المقريزي: نفسه ١/٢٢٣.

(٢) يذكر المقريزي أن أم العادل الثاني أرسلت إلى الملك الكامل حين كان بالرقة سنة ٦٢٧ هـ تخبره بأن ابنه الصالح أيوب عزم على الاستيلاء على الملك وطردها هي وابنها العادل. فتغير الكامل على ابنه الصالح أيوب وخلعه من ولاية العهد وعهد بها إلى ابنه العادل - المقريزي: السلوك ١/٢٣٨.

(٣) مفرج الكروب ١/٢٩٦.

استكثر الصالح أيوب من شراء المماليك الأتراك إلى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم [1]، وذلك بعد أن ظل عنصر الأكراد الأحرار عدة الدولة الأيوبية منذ نشأتها. ومرد ذلك تخوف الصالح نجم الدين أيوب من اجتماع الملوك الأيوبيين ضده بزعامة عمه إسماعيل وخشيه انقلاب الكاملية والأشرفية عليه إذا رجحت كفة أخصامه، ويبدو أن الصالح أيوب لم يستكثر من المماليك الأتراك فحسب بل أباح لهم الحرية دون غيرهم من الطوائف المملوكية حتى ضج الناس من عبثهم واعتداءاتهم على الأنفس والأموال [2]. عندها ارتأى أن يبعدهم من العاصمة فابتنى لهم عام ٦٣٨ هـ/١٢٤١ م قلعة خاصة بجزيرة الروضة أسكنهم بها كما اتخذها مقراً لملكه. وعرف هؤلاء المماليك الجدد باسم المماليك البحرية الصالحية [3].

---

(١) أبو الفدا: المختصر ١٨٨/٣، المقريزي: السلوك ٣٣٩/١ - ٣٤٠، ابن أياس: بدائع الزهور ٧٠/١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣١٩/٦.

(٣) المقريزي: الخطط ١١٦/٢ - ١١٧، علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية ص ٢٤ أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى ٩٨ - ٩٩.

نبغ من بين المماليك الذين استكثر منهم الصالح نجم الدين أيوب عدة أشخاص كان لهم أكبر الأثر في تغيير مجرى السياسة المصرية، ومن أهمهم شجر الدر، وهي أول سلطانة على مصر من غير الأيوبيين، وقامت بدور هام في حوادث انتقال السلطنة من الأيوبيين إلى المماليك.

وكانت شجر الدر أرمنية على جانب وافر من الذكاء والجمال، بعثها الخليفة المستعصم بالله العباسي من بغداد إلى نجم الدين أيوب، في القاهرة، فولدت له ابنه خليلاً، وأصبحت أم ولد في حريمه، وتوطدت مكانتها لديه بمولد ابنها حتى لقد سميت «أم خليل» وصحبته في رحلته إلى بلاد المشرق في حياة أبيه السلطان الكامل، ثم ظلت معه حين حبسه الملك الناصر داوود صاحب حلب بالكرك سنة ٦٣٧ هـ [١] ولما اعتلى أيوب عرش انسلطنة الأيوبية في مصر ارتفع شأن شجر الدر، ثم اعتقها الصالح أيوب وتزوجها.

اشتهرت شجر الدر بالدهاء، وقد وصفها ابن أياس بأنها «صعبة الخلق قوية البأس» [٢] وقد تجلى دهاؤها حين أخفت خبر وفاة زوجها الصالح أيوب، وقت أن كانت الحرب قائمة

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/١٩١.
(٢) ابن أياس: بدائع الزهور ١/٩١.

بين المسلمين والصليبيين في مصر [1] حتى لا يقع الاضطراب في صفوف الجند، واستمرت هي في وضع الخطط الحربية والإشراف على تنفيذها، ومراقبة سير المعركة ومدّ القواد بآرائها. وتحمسّ المماليك البحرية في القتال بقيادة بيبرس وتضافر معهم الأهالي حتى نكلوا بالصليبيين في المنصورة..

في تلك الفترة الحرجة، أحكمت شجر الدر إخفاء خبر موت زوجها الصالح أيوب؛ فأمرت بأن يتولى غسل جثته أحد أطبائه ووضع في تابوت حمل ليلاً إلى قلعة الروضة، وبعد دفنه في قبره بجوار المدرسة الصالحية كانت تقول للأمراء: «إن السلطان مريض لا يصل إليه أحد» كما كان السماط السلطاني يمد في مواعيده، والأوامر تخرج كل يوم من القصر السلطاني ممهورة بالعلامة السلطانية التي كان يقوم بتقليدها أحد غلمانها وهو الخصي سلار.

وقبل أن يعرف خبر وفاة السلطان الصالح أيوب، استدعت شجر الدر ابن زوجها توران شاه وكان غائباً عن

---

(١) كان سقوط القدس للمرة الثانية سنة ٦٤٢ هـ ١٢٤٤ م بيد الصالح أيوب وحلفائه الخوارزمية سبباً في قيام الحملة الصليبية على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا. وعن هذه الحملة بالتفصيل أنظر.

- جوانفيل: حملة القديس لويس ترجمة حسن حبشي دار المعارف بمصر.

مصر في حصن كيفا. وأصدرت الأوامر إلى كبار رجال الدولة بأن يحلفوا له يمين السلطنة، كما دعا له خطباء المساجد على المنابر. ومنذ وصوله تسلم توران شاه زمام الملك وقيادة الحرب. ولكنه لم يكن بالشخصية الفذة القادرة على كبح جماح المماليك، كما لم يكن على درجة من الدهاء تمكنه من كسب ودّهم، فناصبهم العداء وعزم على التخلص من أمراء جيشه وكبار رجال دولته الذين كانوا الدعامة الرئيسية للدولة في عهد أبيه[1]. ليس هذا فحسب بل انه لم يحمد لشجر الدر صنيعها، وتنكّر لها وهددها وتوعدها وأساء معاملتها واضطهد أنصارها. كما بعث إليها يطالبها بأموال أبيه، وكانت تجيبه دائماً أن الأموال صرفتها في شؤون الحرب والبلاد.

وقد داخل شجر الدر من تورانشاه خوف شديد فمضت إلى القدس حيناً من الزمن خوفاً من غدره، كما كتبت إلى المماليك البحرية تشكو لهم مسلكه الخشن معها رغم الخدمات الجليلة التي أدتّها نحوه وقت كان غائباً عن مصر، أضف إلى ذلك إعلانه الحرب على باقي أفراد البيت الأيوبي. وهكذا تفاعلت هذه الأمور جميعاً ضد تورانشاه،

---

(١) المقريزي: السلوك ١/٣٥٨ ـ ٣٥٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٣٧٠ ـ ٣٧٨.

وبخاصة تحريض شجر الدر المماليك البحرية وتأليبهم ضده مما جعلهم يجمعون على قتله قبل أن يتخلص منهم ويبطش بهم. وقام بتنفيذ هذه المؤامرة أربعة من كبار الأمراء المماليك البحرية من بينهم فارس الدين أقطاي وبيبرس، فقتلوه في ٢ أيار ١٢٥٠م/٢٧ محرم ٦٤٨ هـ. بموت تورانشاه تطوى صفحة الدولة الأيوبية في مصر لتبدأ صفحة جديدة.

نادى كبار رجال الدولة بشجر الدر سلطانة على مصر عقب مقتل تورانشاه، وتلقبت بعدة ألقاب من بينها «الملكة عصمة الدين شجر الدر» ودعي لها على المنابر «بملكة المسلمين والدة الملك خليل» و«عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح».

على أن الأحوال اضطربت على أثر توليتها الملك، فإن الخليفة العباسي نعى على أهل مصر إقامة امرأة في السلطنة، ولم يتمكن أمراء المماليك من أن يحصلوا على موافقته على اختيارها، بل على العكس رد الخليفة على طلبهم بقوله «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فاعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلاً» [1] كما أن المصريين أنفوا من قيام امرأة بالسلطة فقاموا باضطرابات كان وراءها رجال الدين

---

(١) المقريزي: السلوك ١/٣٦٨ - ٣٦٩.

وعلى رأسهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام [1] . كما انتهز الملك الناصر يوسف، صاحب حلب، الفرصة السانحة وزحف بجيوشه على دمشق فاستولى عليها وعلى غيرها من المدن الشامية بدون حرب، ثم واصل زحفه جنوباً باتجاه مصر. وخاف المماليك على دولتهم الناشئة من منافسة الأيوبيين واقتنعوا بخطأ تصرفهم فأشاروا على شجر الدر أن تتزوج من الأتابك عز الدين أيبك التركماني وأن تتنازل له عن السلطنة فقبلت بذلك وخلعت نفسها من السلطنة في تموز ١٢٥٠ بعد أن حكمت ثمانين يوماً برهنت فيها على كفاية وبراعة في تصريف الأمور[2] .

بعد أن زالت دولة بني أيوب، وانتقل الحكم في مصر

---

(١) ولد سنة ٥٧٧ هـ ودرس بدمشق على أئمة عصره، ثم ولي الخطابة والإمامة بالجامع الأموي، انكر على صاحب دمشق الصالح إسماعيل استعانته بالصليبيين وتوجه الى القاهرة حيث فوض إليه الصالح أيوب تدريس المذهب الشافعي بمدرسة الواقعة بين القصرين والخطابة في جامع عمرو بن العاص وكانت وفاته سنة ٦٦٠ هـ زمن السلطان بيبرس المملوكي . نجد ترجمته في ـ السبكي: طبقات الشافعية ٥/ ٨٠ ـ ١٠٧، أبو الفدا: المختصر ٣/٢١٤ـ عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر ٢٠٤ ـ ٢٠٨.

(٢) علي إبراهيم حسن: دولة المماليك البحرية ص ٣٨.

إلى مماليكم بانتخاب الأمير عز الدين أيبك [١] لعرش السلطنة (٦٤٨ ـ ٦٥٥ هـ = ١٢٥٠ ـ ١٢٥٨ م) لم تستقر الحالة تماماً، وذلك أن المماليك لم ينتخبوا من بينهم الأمير أيبك سلطاناً لأنه أقواهم مراساً في إدارة شؤون البلاد، بل على العكس من ذلك دفعهم إلى هذا الاختيار كونه من أواسط الأمراء مكانة، حتى إذا بدا لهم أن مصلحتهم تقتضي صرفه عن العرش استطاعوا ذلك في يسر وسهولة لضعف شأنه وضآلة نفوذه [٢] .

وقد اعترض أيبك في عهد سلطنته عدة عقبات، فإن الناس لم ينسوا بني أيوب باعتلاء أيبك عرش السلطنة، فقد أورد لنا ابن أياس عبارة نستدل منها على أن كثيراً من المماليك البحرية كانوا لا يزالون يذكرون حق الأيوبيين الشرعي في عرش البلاد، فلم يرضوا عن سلطنة أيبك ولم يطمعوا في أن يكون للمماليك حكم وادي النيل [٢٧]. لذلك وقع في عهد سلطنة أيبك حادث نادر الوقوع في تاريخ الأمم والشعوب وهو إقامة سلطانين معاً في وقت واحد. إذ اتفق

---

(١) لفظ ايبك يتركب من كلمتين هما: «أي» معناها قمر، و «بك» ومعناها الأمير فمعنى الإسم الأمير قمر.

ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٧.

(٢) ابن أياس: بدائع الزهور ٩١/١.

بعض أمراء المماليك بزعامة الأمير فارس الدين أقطاي مع المعز أيبك على إقامة سلطان آخر من بني أيوب «لأنفتهم وخوفهم من المعز أيبك، فاختاروا أن يقيموا صبياً من بني أيوب ويكونوا هم الذين يدبرون الملك ويأكلون الدنيا باسمه»[1] فاستدعوا الناصر صلاح الدين يوسف[2] ابن الملك المسعود يوسف صاحب بلاد اليمن وبايعوه بالسلطنة ولقبوه الملك الأشرف[3] .

وهكذا أصبحت السلطنة قسمة بين أيبك والأشرف، يحكمان مصر سوياً وكل منهما يحمل لقب سلطان، يقول المقريزي «فاجتمع رأي الأمراء على إقامة الأشرف شريكاً للمعز في السلطنة فأقاموه معه في جمادي الأولى سنة ٦٤٨ هـ». ويقول ابن أياس «فلما تسلطن يوسف المذكور لم يعزل أيبك عن السلطنة بل سار معه مثل الشريك وكان يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها، وضربت السكة على الدنانير باسمهما»[4] .

---

(١) علي إبراهيم حسن: دولة المماليك البحرية ص ٣٩.

(٢) يقال له مظفر الدين وموسى وهو ابن الملك المسعود يوسف صاحب بلاد اليمن المعروف بأقسيس.

(٣) المقريزي: السلوك ١/٣٦٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٥.

(٤) المقريزي: الخطط ٣/٢٣٨، ابن أياس: بدائع الزهور ١/٩٠.

على أن المؤرخين أجمعوا على أن الأشرف لم يكن لـه مع أيبك سوى الإسم. وفي ذلك يقول المقريزي. «وصارت المراسم تبرز عن الملكين، إلّا أن الأمـر والنهي للمعز وليس للأشرف معه سوى مجرد الإسم»[1] . ويقول أبو المحاسن: «واستمر الحال على ذلك مدة والمعـز هو المستـولي بالتـدبير ويعلّم على التواقيع والأشرف المذكور صورة»[2].

وظل الناصـر صلاح الـدين شريكـاً في السلطنـة، حتى قـويت شوكـة أيبك بـانضمام عـدد كبير من الممـاليك إليـه، فانتهز فرصة ازدياد خطر التتار في بلاد الشام وتهديـدهم مصر سنـة ٦٥٠ هـ/١٢٥٢ م وقـطع اسم الأشـرف من الخـطبـة وسجنه بقلعة الجبل[3] ، ثم بعث به إلى عماته بنـات الملك العادل الأول الأيوبي[4] . وكان الأشرف آخر ملوك بني أيوب بمصر. ولم تقم للأيـوبيين بعد ذلـك قائمـة، على الرغم من المحاولات التي حاولها كثير من الأيوبيين في سبيل الـوصول إلى عرش مصر واحياء الدولة الأيوبية فيها.

---

(١) المقريزي: الخطط ٢/٣٩٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٦.

(٣) المقريزي: الخطط ٢/١٦٥.

(٤) علي إبراهيم حسن: دولة المماليك البحرية ص ٤٠.

كذلك خرج الملك الناصر صاحب الشام بجيوشه ووصل إلى الديار المصرية بعد الاستيلاء عليها، ولكن جيوش المعز أيبك هزمته وأرغمته على العودة إلى الشام [١] . كما أن عدداً من الجند عزموا، في الشهور الأولى من سلطنته، على خلعه وإقامة الملك المغيث عمر أحد أبناء البيت السلجوقي مكانه في السلطنة. وهنا نرى المعز أيبك يبتكر هذه الحيلة للتخلص من منافسيه في السلطنة، فيستعين بالخلافة العباسية لتحقيق أغراضه ويأمر بأن ينادى في القاهرة ومصر أن «البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي وأن الملك المعز نائبه فيها» [٢] .

ومما أقلق بال أيبك أن الأمير فارس الدين أقطاي مقدم المماليك البحرية الذي ساعد على إقامة الأشرف الأيوبي في السلطنة مع أيبك كما رأينا. ظهر إذ ذاك على مسرح السياسة المصرية، وأخذ يعمل على التقليل من شأن أيبك حتى أنه كان يعده من أتباعه ويسميه باسمه دون لقب السلطنة تكبراً منه. كما كان يأنف من أن يتلقى أوامره من السلطان وإنما كان يقطع في المسائل الهامة برأيه ولما اشتد عسف أقطاي

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ١/ ٣٧٠.
(٢) المقريزي: السلوك ١/ ٣٧٠.

ومماليكه[1] وتجرأوا على السلطان أيبك، بعث في طلبه وتظاهر بأنه يريد استشارته في مهام الدولة. ولما وصل إلى قلعة الجبل (٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ) أغلق بابها ومنع مماليكه من الدخول معه ثم أمر به فقتل. وعلى أثر ذلك فرّ أنصار أقطاي من الأمراء من أمثال الأمير ركن الدين بيبرس البندقدار والأمير سيف الدين قلاوون والأمير سنقر إلى الملك المغيث عمر بن العادل صاحب الكرك والملك الناصر يوسف صاحب دمشق[2] .

ولا يكاد عهد المعز أيبك يخلو من المنازعات التي قامت بينه وبين كبار المماليك البحرية على السلطة والنفوذ[3] ، ذلك أن الأمر لم يستتب له بالتخلص من الأشرف الأيوبي شريكه في السلطنة وقتل أقطاي وتشريد أعوانه، لأن هؤلاء الأعوان بزعامة بيبرس صاروا حزباً ضده برغم تفرقهم في نواحي البلاد الشامية. فخاف المعز عاقبة ذلك وكتب إلى الناصر يخوفه ممنّ كان عنده منهم ويحذره شرّهم[4] . فطلب الناصر استرداد البلاد التي كان قد أخذها

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٣٩٠ علي إبراهيم حسن: دولة المماليك البحرية ص ٤١.
(٢) المقريزي: السلوك ١/ ٣٨٩ - ٣٩٠.
(٣) المقريزي: السلوك ١/ ٣٩٣.
(٤) المقريزي: السلوك ١/ ٣٩٢.

منه لإقامة طائفة المماليك البحرية بها، فأعادها إليه الملك المعز وتم الصلح بينهما على ذلك.

ورغم هذه المحاولات بقي أيبك خائفاً، لذا نراه يلجأ إلى الخلافة العباسية مرة أخرى، مترسماً خطى صلاح الدين الأيوبي، إذ أرسل إلى الخليفة ببغداد «يلتمس تشريفه بالتقليد والخِلَع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر». وكان يرمي بذلك إلى تثبيت ملكه وجعله شرعياً بتأييد الخليفة العباسي وليتقوى بذلك على منافسيه من المماليك ومن البيت الأيوبي.

صفا الجو للمعز أيبك مدة كانت سلطنته خلالها تستند إلى القوة الحربية وتأييد الخلافة العباسية تأييداً يدل على شيء من التبعية. واستمر الحال على ذلك إلى سنة ٦٥٥ هـ/١٢٥٧ م حين ساءت العلاقة بينه وبين زوجته شجر الدر، فقد نغّص عليها حياتها أنها كانت شديدة الغيرة على زوجها أيبك، حتى أرغمته على التخلص من زوجته الأولى أم ولده علي ومنعته من زيارتها هي وابنها، سئم أيبك شجر الدر، وأرسل إلى الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته[1]، وكان ذلك بداية النهاية لعهده، إذ

---

(١) المقريزي: السلوك ١/٤٠١.

تزعمت شجر الدر بعد أن نمي إليها الخبر، المعارضة لسلطنته وانتهى صريعاً على يد خمسة من غلمانها انقضوا عليه وهو في الحمام وقتلوه [١] وذلك: في ١٤ ربيع الأول سنة ٩٥٥ هـ/١٢٥٧ م.

وعلى أثر مقتل السلطان أيبك اضطربت الأحوال في مصر، وطمع كثيرون إلى الجلوس على عرش السلطنة، فعضد جماعة الأمراء الصالحية الأمير عز الدين الحلبي، واتفق رأي من بقلعة الجبل على تنصيب الأمير علم الدين سنجر الحلبي. أتابك الملك المعز أيبك سلطاناً ولكن لم يتم لهؤلاء توليه أحدهم.

انتقلت السلطنة بعد مقتل المعز أيبك إلى ابنه علي، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة، ولقب بالمنصور، كما عين الأمير سيف الدين قطز أتابكاً له. ولم يكن اعتلاء المنصور علي عرش السلطنة احتراماً لمبدأ الوراثة، فقد كان ذلك المبدأ غريباً عن عقلية المماليك، بل لأن أتباع أبيه رأوا

---

(١) هناك روايات عدة تصف الطريقة الفظيعة والقاسية التي قتل بها ايبك.

- المقريزي: السلوك ٤٠٣/١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٧٥/٦ - ٣٧٦، ابن أياس: بدائع الزهور ٩١/١ - ٩٢.

- محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية ١٠٨ - ١١١.

الاحتفاظ بالعرش في بيته انقاماً من قتلته.

بدأ هذا السلطان عهده بالانتقام لأبيه أيبك من شجر الدر، فاعتقلت في البرج الأحمر. أحد أبراج القلعة ثم سيقت في يوم الجمعة ١٠ ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ إلى أم السلطان علي، فأمرت الجواري بضربها بالقباقيب إلى أن كانت في يوم السبت، وألقيت جثتها من سور القلعة إلى الخندق فبقيت أياماً فيه، ثم حملت ودفنت بتربتها قرب مشهد السيدة نفيسة[١].

وفي عهد السلطان المنصور علي اضطربت الأحوال في مصر لأن هولاكو كان قد وصل إلى حلب وبدأ يهدد بغزو الأراضي المصرية. وكان قطز منذ تعيينه أتابكاً للمنصور يعمل على اغتصاب الملك منه، فاستغل الفرصة وأعلن أن الملك المنصور صغير السن وأنه لا يحسن تدبير الأمور بمصر في ذلك الوقت المضطرب الذي يحتاج إلى سلطان معروف بالجرأة وسداد الرأي، كي يتمكن من قتال التتار ورد خطرهم عن مصر لذا عمد إلى اعتقال السلطان المنصور علي في قلعة الجبل[٢] وأعلن نفسه سلطاناً عام ٦٥٨ هـ/١٢٥٩ م

---

(١) المقريزي: السلوك ١/٤٠٣ - ٤٠٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٣٦٦ - ٣٨٨.

(٢) المقريزي: السلوك ١/٤١١.

ولما أنكر الأمراء على قطز هذا العمل اعتذر إليهم بقوله: «إني ما قصدت إلاّ أن نجتمع على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم» [1].

واجه قطز من مبدأ حكمه تهديد التتار لمصر، وخرج للقائهم في أواخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ/٣ أيلول ١٢٦٠ وألحق بهم هزيمة منكرة في عين جالوت، بين بيسان ونابلس بفلسطين، ثم في بيسان نفسها وقتل من التتار نحو النصف [2]. وخرج بعد ذلك من دمشق عائداً إلى مصر حتى وصل إلى القصر، إحدى قرى مركز قاقوس بمديرية الشرقية، فبقي مع بعض خواصه وامرائه، في حين رحل جنده إلى جهة الصالحية. وكان جماعة من المماليك بزعامة بيبرس قد اتفقوا على قتل السلطان «لكمين كان في نفس بيبرس لأجل نيابة حلب، التي كان السلطان قد أعطاها

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٢) نجد تفصيلاً وافياً لمعركة عين جالوت فيما كتبه صارم الدين ازبك بن عبدالله الأشرفي أنظر السلوك ١/٤٣١، النجوم ٧/٥٧٩، المختصر ٣/٣١٤، الذيل على الروضتين ٢٠٧ ـ ٢٠٨. بدائع الزهور ١/٩٧ ـ العبادي: قيام دولة المماليك الأولى ضميمة رقم ٣ ص ٢٥٦ وما بعدها.

صاحب الموصل» [1] . وهكذا لم يهنأ قطز بانتصاره ولم تسن له قطف ثماره، إذ قضى قتيلاً في كمين دبره له الأمراء لمماليك بزعامة بيبرس بسبب رفض قطز إعطاءه نيابة حلب عد أن كان وعده بها، على أن السبب الحقيقي يرجع إلى لخلاف القديم بين المماليك المعزيّة والمماليك البحرية لصالحية [2] .

١ ـ بيت بيبرس

انتقل الملك بعد قطز إلى قاتله بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٠ هـ/١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م) في ١٥ ذي القعدة ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م وحلف الجنود والأمراء له يمين الطاعة. يعتبر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك، إذ اجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والاقدام. وقد أطنب المؤرخون في مدح مناقبه بسبب ما ابتدعه من النظم والقواعد التي قوّت

---

(١) يعتبر رفض قطز إعطاء بيبرس نيابة حلب بعد أن كان وعده بها السبب المباشر في تدبير مقتله، أما الأسباب الغير مباشرة فترجع إلى العداء القديم بين المماليك المعزيّه والمماليك البحرية الصالحية أنظر.
ـ المقريزي: السلوك ٤٣٧/١ ـ وابن أياس: بدائع الزهور ٩٩/١ ـ ١٠٠.

(٢) أبو الفدا: المختصر ٢٠٨/٣، المقريزي: الخطط ٣٠٠/٢ ـ ٣٠١.

أسس دولة المماليك[1] ، في عهده أقيمت الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦٠ م بعد أن زالت من بغداد سنة ١٢٥٨/٦٥٦ م. وبإحيائها اكتسبت سلطنة بيبرس صفة شرعية بفضل التقليد الذي جعل عليه من الخليفة، وأمن بذلك جانب أعدائه ومنافسيه في الداخل والخارج، وأحاط بيبرس عرشه وعرش من جاء بعده من سلاطين المماليك بسياج من القداسة والتبجيل، وأثبت أحقية المماليك في تولي شؤون مصر. وساعد ذلك على إخماد الاضطرابات وتسكين الفتن التي قد يثيرها أمراء المماليك في وجه بيبرس، كما كتم الأحقاد التي كانت تغلي في صدورهم كالمرجل.

وسنّ بيبرس نظام ولاية العهد في دولة المماليك البحرية وحصر وراثة العرش في أسرته (٦٦٢ هـ) وذلك بتولية ابنهُ

---

(١) اشتهرت سيرة الملك الظاهر بيبرس دون سائر السلاطين لدرجة أن أخباره امتزجت بها حقائق التاريخ بخيال القصص، فصوّرت شخصيته وكأنها شخصية عصر أكثر بما هي شخصية إنسان. وقد كتب له سيرتان إحداهما للقاضي محي الدين بن عبد الظاهر بعنوان «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» والأخرى لعز الدين محمد بن شداد حققها الدكتور أحمد حطيط وصدرت عن معهد الدراسات الألمانية في بيروت.

محمد المسمى بركه خان [1] عهده، ليحول بذلك دون تدبير الدسائس والمؤامرات التي كان يحيك شباكها كبار الأمراء حول العرش ولكي يحتفظ بالسلطنة في بيته بعد وفاته ولم يكتف بيبرس بمنح ابنه الذي لقب بالملك السعيد ولاية العهد ضماناً لوصوله إلى العرش بعده، بل عمد إلى إشراكه في حكم البلاد فمنحه كل الاختصاصات التي كان يباشرها السلطان تحت إشرافه، كما أمر بذكر اسمه في خطبة الجمعة، وأن تضرب السكة باسميهما معاً [2] . وفي سنة ٦٦٨ هـ/١٢٦٨ م جدد بيبرس ولاية العهد لابنه الملك السعيد وحلّف الأمراء والجند على ذلك، وقرىء التقليد الجديد وهو من إنشاء فخر الدين بن لقمان، كاتب الانشاء، بحضور الأمراء والأعيان. وهذا التقليد لا يخرج عن كونه توكيداً للاختصاصات التي منحت للملك السعيد في ولايته الأولى، وعلى الرغم من هذه الاختصاصات الواسعة التي وضعها بيبرس في يد ابنه فإنه يظهر لنا أنه لم يباشرها في

---

(١) سمي بركة خان على إسم جده لأمه بركة خان الخوارزمي.

(٢) يمكن الاطلاع على نص توليه الظاهر بيبرس عهده لإبنه الملك السعيد في ـ القلقشندي: صبح الأعشى ١٠/١٦١ ـ ١٦٦.

حياة أبيه الذي ظل قابضاً على أزمة الحكم يصرّفها بنفسه دون منازع.

كان بيبرس إدارياً حازماً إذ دأب على ترقية شؤون بلاده وتنمية مواردها، فحفر الترع وبنى المساجد وكان له مقام عظيم بين أمراء مصر الذين هابوه وخشوا بأسه حتى لم يكن أحدهم يجسر على الدخول عليه إلاّ بإذنه الخاص [1]، كما لم يفكر أحدهم في الخروج عليه أو تدبير الفتن والدسائس بقصد اغتصاب عرشه، باستثناء الفتنة التي أثارها آقوش بحلب في أوائل عهد بيبرس [2] وليس في المصادر المعاصرة ما يدل أن أميراً آخر قد حدثته نفسه بالخروج على هذا السلطان.

وكان بيبرس قائداً شجاعاً ضربت الأمثال ببطولته وشهامته، وقد تجلى ذلك في كثير من المواقع الحربية التي خاض غمارها كواقعة المنصورة التي انتهت بانتصار المسلمين علي الصليبيين سنة ٦٤٧ هـ، وواقعة عين جالوت التي قاد فيها جيوش السلطان قطز ضد التتار الذين اغاروا على بلاد الشام. وكان بيبرس أحسن مثال للحاكم العادل، فقد كان يجلس للمظالم ويعطف على الفقراء والمعوزين، كما كان عالي الهمة وافر النشاط مقداماً خفيف الركاب،

---

(١) المقريزي: السلوك ٦٣٨/١.

(٢) علي إبراهيم حسن: دولة المماليك البحرية ص ٥٠.

يسير على الهجن وخيل البريد لكشف القلاع وتدبير أمور الاقطاعات التابعة لمصر [1].

وقد توج بيبرس إصلاحاته بعدة قوانين أصدرها لتهذيب أخلاق المصريين، فأمر سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م بمنع بيع الخمور وإقفال الحانات بالقاهرة وجميع أعمال مصر ونفى كثيرين من المفسدين [2].

وبنى بيبرس سنة ٦٦٥ هـ/١٢٦٦ م مسجده المعروف باسمه بميدان الظاهر في القاهرة، وجلب لذلك الرخام والأخشاب وغيرها من أدوات البناء من سائر البلاد، وزينّه بزخارف الجص، وهو أحسن مثل للمساجد الجامعة التي بنيت في عصر المماليك البحرية.

وبنى بيبرس كذلك برجاً بقلعة الجبل. وشيّد قناطر السباع على الخليج المصري التي عرفت بهذا الإسم لأنه نصب عليها سباعاً من الحجارة [3]. وأصلح منارة في رشيد والاسكندرية، وجدد سور الاسكندرية، وردم مدخل فم فرع دمياط حتى لا يتمكن الفرنجة من العبور إذا ما أرادوا الاغارة على مصر.

---

(١) المقريزي: السلوك ١/٦٣٨.
(٢) السلوك ١/٥٥٣.
(٣) المقريزي: الخطط ٢/١٤٦.

كما نظم بيبرس الأداة الحكومية واستعان في إدارة شؤون دولته بالأمراء المقربين إليه فولاهم أرقى المناصب واستحدث كثيراً من الوظائف الهامة، كما أدخل في سنة ٦٦٣ هـ تعديلاً جوهرياً على النظام القضائي بمصر، ووجّه عنايته إلى إعداد جيش قوي يكون عدة له في مجاهدته للصليبيين والمغول، بالإضافة إلى عمله على إعادة شأن الأسطول إلى ما كان عليه. وقد اقتنى بيبرس عدداً كبيراً من المماليك حتى أصبحت مصر مملوءة بهم، وأكثر منهم بدليل ما ذكره المقريزي من أن بيبرس «جرى على عادته في عتق ثلاثين نسمة في كل ليلة من ليالي شهر رمضان»[1] . وهذا العدد يبيّن لنا أن بيبرس كانت لديه أعداد وافرة من المماليك حتى استطاع أن يقرر عتق مثل هذا العدد كل ليلة.

وفي ٢٧ المحرم سنة ١٧٦ هـ/١٢٧٧ م، توفي السلطان بيبرس، على أثر عودته من واقعة قيسارية، بدمشق ودفن فيها. ولما حضر الأمراء من دمشق أعلنوا موت السلطان، ثم دخلوا على ابنه الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد بركة خان (٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ م) وأعلموه بوفاة أبيه، ولم يُعيّن له أتابك، إذ كان قد بلغ التاسعة عشرة

(١) المقريزي: السلوك ١/٥٤٥.

من العمر حين اعتلى العرش. وقام الخلاف بينه وبين أمراء المماليك من بدء حكمه مما أدى في النهاية في خلعه ذلك أن بركة خان خرج في سنة ٦٧٧ هـ إلى دمشق، فاتصل بأمرائها أنه يريد القبض عليهم فرحلوا عنها إلى مرج الصفّر وأقاموا هناك، فلما بلغ بركة خان ذلك أرسل إليهم ملتمساً منهم الرجوع دون جدوى. وسار هؤلاء الأمراء إلى مصر ليعملوا على خلع بركة خان، في الوقت الذي رحل فيه عائداً إلى مصر. وما لبث أن حوصر في القلعة وأجبر على أن يخلع نفسه من السلطنة بحضور الخليفة الحالم بأمر الله العباسي والأمراء والقضاة. وعمل بذلك محضر شرعي وقعه الحاضرون [1].

وفي أثناء المنازعات التي قامت بين بركة خان بن بيبرس وأمراء المماليك ظهر أمير قوي كان له أثر كبير في سير الحوادث الجارية في ذلك الوقت، هو الأمير سيف الدين قلاوون أحد المماليك البحرية الذين نبغوا في أواخر الدولة الأيوبية، وهو قفجاقي من قبيلة برج أغلى، جلب صغيراً واشتراه الأمير علاء الدين آقسنقر الساقي العادلي، أحد مماليك الملك العادل أبي بكر بن أيوب بألف دينار لذا

---

(١) المقريزي: السلوك ١/٦٥٥، علي إبراهيم حسن: دولة المماليك البحرية ٥٢ ـ ٥٣.

عرف بالألفي. ولما مات الأمير علاء الدين في سنة ٦٤٧ هـ انتقل قلاوون وعدد من المماليك إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأطلق على هؤلاء تسمية «العلائية» نسبة إلى أستاذهم الأمير علاء الدين. وجُعِل الملك الصالح «قلاوون» من المماليك البحرية، ومازال كذلك إلى أن اعتلت شجر الدر عرش مصر [1].

وكان قلاوون أحد الأمراء الذين خرجوا من مصر مع من غادرها من المماليك البحرية عقب مقتل الأمير فارس الدين أقطاي على يد السلطان أيبك، ولكنه ما لبث أن عاد إليها وعظم نفوذه في عهد السلطان بيبرس حتى أصبح من أمراء مصر البارزين.

زوّج الظاهر بيبرس ابنة بركة خان من غازية خاتون [2] ابنة سيف الدين قلاوون بدمشق في سنة ٦٧٤ هـ. وقد رمى بيبرس بهذا الزواج أن يصبح قلاوون عضداً لابنه في إدارة شؤون الدولة لأنه كان في ذلك الوقت أكبر أمراء المماليك في مصر. ويظهر أن قلاوون كان يهدف إلى اعتلاء

---

(١) راجع تاريخ حياة قلاوون في:
- المقريزي: الخطط ٢/٢٣٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٢٩٣.

(٢) أبو الفدا: المختصر ٤/١٥٥.

عرش مصر وأنه كان يمهد لذلك، بدليل أن السلطان بركة خان لما اشتد عليه الحصار بعث إلى قلاوون ليستشيره في أموره ويطلب منه المعونة، فأشار عليه أن يخلع نفسه، فقبل مشورته وخلع نفسه سنة ٦٧٨ هـ/١٢٧٩ م.

ولم يكن المقصود من خلع السلطان بركة خان الاسراع في القضاء على بيت الظاهر بيبرس، بل أن شخص السلطان كان هو المقصود بالذات وأن بقاءه على عرش مصر لم يعد مرغوباً فيه. ورحل بركة خان إلى الكرك في آواخر شهر ربيع الأول سنة ٦٧٨ هـ وأقام بها، فلم تزد مدة سلطنته على سنتين.

ولما خلع بركة خان خلفه أخوه بدر الدين سلامش. وكان صغيراً لم يزد عمره على سبع سنين حين جلس على العرش، وقد تم لسيف الدين قلاوون ما أراد وأصبح صاحب النفوذ المطلق بتعيينه، أتابكاً أو وصياً للسلطان الجديد. وأخذ قلاوون في تحليف الأمراء فحلفوا له وتلقب بالعادل (٦٧٨ - ٦٧٩ هـ/١٢٧٩ م).

ولم يكن للسلطان سلامش مع أتابكه قلاوون إلاّ مجرد الإسم ولقب السلطنة، وظهر نفوذ قلاوون بأجلى صوره حين ضربت السكة باسم الملك العادل سلامش على أحد الوجهين، وباسم قلاوون على الوجه الآخر. وزاد نفوذه

وارتفع ذكره حين خطب له وللعادل معاً. وغدا قلاوون المتصرف في أحوال المملكة وفي خزائن أموالها، بل لقد عامله الأمراء والجند بمثل ماكانوا يعاملون به السلطان الفعلي.

ومع ذلك فقد كان قلاوون يمنّي النفس في الباطن بالوصول إلى السلطنة ويمهد لها. واتخذ لذلك الخطوات التي توصله إلى مبتغاه. فبعد عزل السلطان بركة خان عمد إلى عزل نوابه من البلاد الشامية وولى من يثق بهم من أتباعه، وقبض على جماعة من الأمراء الظاهرية وسجنهم بثغر الإسكندرية. ثم تخلص من منافسيه البارزين الذين كانوا يطمحون إلى السلطنة. وبعث بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق وفوض إليه نيابة السلطنة بالشام، وأحضر بعض المماليك البحرية الصالحية وأحسن اليهم وأرسل البعض الأخر إلى نيابات الشام [١].

وبعد أن صفا الجو لقلاوون بمرضاته للأمراء وأتباعهم، اتفق معهم على العمل لخلع السلطان سلامش فاجتمع الأمراء والقضاة والأعيان بقلعة الجبل وخلعوا السلطان سلامش لصغر سنه [٢] وذلك في ٢١ رجب سنة ٦٧٨ هـ.

---

(١) على إبراهيم حسن: دولة المماليك البحرية ص ٥٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٨٧/٧ ـ ٢٨٩ ابن أياس: بدائع الزهور ١٤/١.

وبذلك لم تطل مدته في السلطنة أكثر من ثلاثة أشهر. وبعد خلعه لزم داره حتى أرسله قلاوون مع أخيه خضر إلى قلعة الكرك.

٣ ـ بيت المنصور قلاوون

انتقل الملك بعد سلامش إلى أتابكة الأمير سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي النجمي وتلقب بالمنصور (٦٧٩ ـ ٦٨٩ هـ/١٢٧٩ ـ ١٢٩٠ م). ويلاحظ أن السلطنة ظلت في بيت قلاوون من أبنائه وحفدته حتى انتهاء دولة المماليك البحرية سنة ٧٨٤ هـ/١٢٨٢ م. فقد حكم أربعة عشر سلطاناً من ذرية قلاوون. كان خمسة منهم في سن تقل عن العشرين عاماً حين تولوا العرش، وأربعة كانوا أقل من عشرة أعوام وطبيعي أن يكون السلطان في مثل هذه الحالات العوبة في يد الأمراء. سار قلاوون على نهج بيبرس في إدارة شؤون البلاد وتقريب الشعب إليه، وكانت سياسته قائمة على الاكثار في المماليك ليكونوا عوناً له ولأولاده من بعده في تثبيت عروشهم. وأنشأ لذلك فرقة جديدة من المماليك أطلق عليها «البرجية» نسبة إلى أبراج القلعة التي أقاموا بها [1]. ولم ينجح قلاوون في تحقيق الغرض الذي

---

(١) المقريزي: الخطط ٣/١٣٧، حكم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية ص ١٣.

من أجله أنشأ فرقة المماليك البرجية، إذ لم يكونوا دائماً عوناً له ولأولاده من بعده، بل ظهر فيها من المماليك كتبغا ولاجين وبيبرس الجاشنكير الذين اغتصبوا العرش من ابنه الناصر محمد فيما بعد. كذلك اغتصب أحد مماليكها في النهاية العرش من أحد أحفاد الناصر وقضى بذلك على بيت قلاوون وأسس دولة المماليك البرجية.

وسار قلاوون على سياسة بيبرس في إخراج الصليبيين في بلاد الشام، فاستولى على ما بقي في أيديهم سنة ٦٨٦ هـ/١٢٨٩ م، عدا مدينة عكا التي استولى عليها ابنه الأشرف خليل سنة ٦٩١ هـ/١٢٩١ بعد موت أبيه.

كما تابع سياسة بيبرس إزاء التتار فهزمهم وأبعد خطرهم عن مصر والشام. وكان قلاوون ملكاً عظيماً أقام الكثير من المنشآت والآثار الجليلة كالمدارس والمساجد والمستشفيات والملاجيء. فقد أنشأ القبة التي دفن تحتها، ومدرسته ومارستانه الذي يعرف بمستشفى قلاوون سنة ٦٨٨ هـ.

وفي عهد قلاوون ظهرت ولاية العهد مرة ثانية في تاريخ دولة المماليك ولكن بشكل أعم، ذلك أن السلطان بيبرس منح ابنه بركة خان ولاية العهد وما يتبعها من اختصاصات السلطنة دون منحه لقب «سلطان»، ولكن قلاوون لما استتب له الأمر، فكرّ في سنة ٦٧٩ هـ، أي في نفس السنة التي

تولى فيها السلطنة، في تعيين ابنه علاء الدين على مصر في حياته، فجمع لذلك الأمراء وعرض عليهم ماستقر عليه رأيه من تفويض ابنه «ولاية العهد وكفالة الممالك» فأقروه على رأيه. وركب علاء الدين بشعار السلطنة كما ركب بركة خان بن بيبرس من قبل (١). وكان الدافع لقلاوون على إقامة ابنه سلطاناً في حياته أنه كان دائم السفر إلى بلاد الشام لمحاربة التتار، فرأى أن يقيم ابنه مكانه في إدارة شؤون مصر أثناء غيبته مع منحه لقب السلطان حتى تكون له الهيبة في نفوس الأمراء والأهالي.

استقر علاء الدين في السلطنة في رجب سنة ٦٨٩هـ. وكتب له تقليد بذلك من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ولقب بالملك الصالح. وقرىء التقليد في الإيوان الكاملي بالقلعة بحضور الأمراء والمقدمين والوزراء. ولما انتهت تلاوة التقليد خلعت عليهم الخلع. وبعد إتمام قلاوون لهذه المراسم خرج إلى بلاد الشام لمحاربة التتار وتفرغ بذلك لما كان يشغله من أمر السلطنة وولاية العهد لابنه.

وأقام الملك الصالح في دست السلطنة ثماني سنوات

---

(١) نجد نص هذا العهد في:
- القلقشندي: صبح الأعشى ١٥/١٦٦ - ١٧٣.

(٦٧٩ ـ ٦٨٧/١٢٨٠ ـ ١٢٨٨ م) ثم توفي في حياة أبيه في شعبان سنة ٦٨٧ هـ/١٢٨٨ م. فأظهر السلطان قلاوون لموت ابنه جزعاً بالغاً وحزناً شديدا وبعد موت علاء الدين، عهد قلاوون من بعده إلى ابنه الثاني ولقبّه بالأشرف. وكتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر كتاب ولاية العهد للأشرف خليل [1] الذي حكم خلال الفترة الممتدة من ٦٨٩ ـ ٦٩٣ هـ/١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م.

وفي ولاية الأشرف خليل عاد نفوذ الأمراء إلى الظهور بشكل جلي، واتّضح للعيان أثرهم في تدعيم عروش السلاطين أو تقويضها. وقد افتتح خليل عهده بالغدر برجالات الدولة الذين كانت لهم السطوة والنفوذ في عهد أبيه، فبادر إلى التخلص منهم. ولم يدرك ما للأمراء من شدة البأس وقوة الشكيمة والقدرة على الدس لمن لا يردعهم ويوقرهم ويرعى حرمتهم ومقامهم من سلاطين مصر. كما لم يتعظ بما حدث للسلطان قطز، ولا بما حدث للسلطان بركة خان بن بيبرس الذي حلف له الأمراء مرتين سنتي ٧٦٢ و٧٦٧ هـ. ولم يمنعهم قسمهم من الخروج عليه وإذلاله ثم عزله سنة ٦٨٧هـ/١٢٧٩م. وبمجرد اعتلاء السلطان خليل العرش، بدأ الأمراء دسائسهم وكيدهم له بأن حرضوا نائب السلطنة الأمير

---

(١) المقريزي: السلوك ١/٦٨٢.

حسام الدين طرنطاي بالقبض عليه، لما كان بين خليل وطرنطاي من العداوة منذ كان خليل ولياً للعهد. ولكن طرنطاي لم يستمع لنصحهم، فقبض عليه السلطان وقتله بعد أيام قليلة من اعتلائه العرش، فهال الأمراء ما فعله خليل مع نائبه، وزاد في عدائهم له تعاظمه عليهم واستخفافه بهم بعد عودته من فتح عكا سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م فاتفق الأمراء عليه وبدأوا يدبرون المكائد.

وكانت العداوة التي استحكمت بين الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطان وبين السلطان، هي العامل الأكبر في القضاء على سلطنة الأشرف خليل. واتفق بيدرا مع حسام الدين لاجين على قتله عندما تسنح الفرصة. وقد حانت لهم هذه الفرصة سنة ٦٩٣ هـ عندما خرج السلطان للصيد بمكان يقال له الحمامات بمديرية البحيرة. فلما وصل السلطان إلى «تروجه» من أعمال البحيرة سمح لإمرائه بالتوجه إلى القاهرة حتى يعود من رحلته. وسرعان ماأرسل بيدرا إلى الأمراء الناقمين على السلطان فحضروا وخرجوا متظاهرين بالرغبة في صيد الغزال في الصحراء. وما لبثوا أن غدروا بالسلطان فهجموا عليه وضربوه بالسيف حتى مات وتركوه في المكان الذي قتل فيه.

وقبل أن يبرحوا مكان الجريمة قرّ رأي الأمراء على تولية

بيدرا السلطنة وحلفوا له وقبلوا الأرض بين يديه [1] على ما جرت به عادتهم عند تولية سلطان جديد، ولقبوه «الملك الرحيم» وقيل «الملك الأمجد» [2]، وقيل «الملك القاهر» [3]. ثم قصد بيدرا والأمراء في ركابه إلى قلعة الجبل. ولكن مماليك الأشرف خليل ساروا في أثر بيدرا ومن معه حتى لحقوهم، ووقعت بينهم موقعة كبيرة هزم فيها بيدرا وأصحابه. وتتّبعت المماليك السلطانية بيدرا وقتلوه قبل أن يصل إلى القلعة. أما الأمير لاجين فقد اختفى ولم يعثر له إذ ذاك على أثر.

حكم الأشرف خليل مصر ثلاث سنين وشهرين برهن خلالها على أنه كان حاكماً شديد البأس، مهيباً في أعين الناس، كفؤاً لتولي ملك مصر، وعارفاً بأحوال المملكة [4]. وبوفاة السلطان خليل انتقل الملك إلى محمد الإبن الثاني للسلطان قلاوون (٦٩٣ - ٧٤٣ هـ/١٢٩٣ - ١٣٣٤ م)، وينقسم حكمه إلى ثلاثة أقسام. حيث تولى العرش ثلاث مرات تخللها فترات اغتصاب لملكه من بعض أمراء

---

(١) المقريزي: الخطط ٢/٢٣٩.
(٢) ابن أياس: بدائع الزهور ١/١٢٧.
(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٤/٣٠.
(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨/٢٧.

المماليك فقد اغتصب العرش خلال سلطنته الأولى العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤ ـ٦٩٦هـ/١٢٩٤ـ ١٢٩٦ م) والمنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦ ـ ٦٩٨هـ/١٢٦٩ـ ١٢٩٨ م). ولكن الاضطرابات والفتن التي قامت في عهديهما والضعف الذي انتاب البلاد أثناء حكمهما ساعدا على عودة الناصر إلى العرش. أما خلال سلطنته الثانية فقد تمكن المظفر زين الدين بيبرس الجاشنكير من اغتصاب العرش لنفسه (٧٠٨ ـ٧٠٩هـ/١٣٠٨ـ ١٣٠٩ م). لكنه عاد مجدداً للسلطنة فاستمرت سلطنته الثالثة في (٧٠٩ ـ ٧٤١ هـ/١٣٠٩ ـ ١٣٤٠ م) التي انفرد فيها بحكم مصر وتمكن من القضاء على الذين اغتصبوا عرشه وأقاموا الفتن وأثاروا الدسائس حوله.

وبعد وفاته سنة ٧٤١ هـ/١٣٤٠ م دخلت دولة المماليك البحرية في طور جديد من نظم الحكم، وذلك بسبب كثرة عدد السلاطين الذين اعتلوا العرش، وصغر سنهم، وبسبب ظهور نفوذ الأتابكة بشكل جلي، واشتداد التنافس بين الأمراء على النفوذ، وجعلهم العوبة في أيديهم، يعزلون السلطان أو يبقونه على العرش حسب مشيئتهم. وكان مصير أولئك السلاطين الخلع ثم النفي أو القتل، وأحياناً يظل بعضهم بقلعة الجبل على أن يمنع من الاتصال بالناس.

وبذلك ضعفت الدولة المملوكية واضطربت أحوالها وكثرت الفتن والقلائل في جميع أرجائها.

وقد بلغ عدد أولئك السلاطين الذين تولوا العرش من بعد وفاة الناصر محمد إلى نهاية دولة المماليك البحرية اثني عشر سلطاناً، وهم ثمانية من أولاد الناصر محمد[١] وأربعة من أحفاده[٢]. وكان مجموع مدتهم ثلاثاً وأربعين سنة. وبذلك يكون متوسط حكم السلطان الواحد في هذه الفترة ثلاث سنوات ونصف السنة.

---

(١) المنصور سيف الدين أبو بكر، الأشرف علاء الدين كجك، الناصر شهاب الدين أحمد، الصالح عماد الدين إسماعيل، الكامل سيف الدين شعبان، المظفر زين الدين حاجي، الناصر بدر الدين أبو المعالي حسن ثم الصالح صلاح الدين صالح، فالناصر حسن ثانية.

(٢) المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي - الأشرف زين الدين أبو المعالي بن شعبان - المنصور علاء الدين بن علي بن شعبان - الصالح زين الدين حاجي.

٤ ـ نظم الحكم في الدولة المملوكية

ليس من السهل دراسة عادات المماليك وحياتهم الخاصة دراسة عميقة، لأن المصادر قد أغفلت إلى حد كبير دراسة هذه الناحية. والباحث لا يجد في تاريخ العالم نظيراً لعصر المماليك فهم طائفة من الأرقاء المشترين بالمال. ثم كثر عددهم وحكموا قطراً غنياً كمصر ووضعوا أيديهم على بلاد أخرى خارج مصر أيضاً. ومن الغريب أنهم عاشوا أثناء حكمهم لمصر كطائفة منفصلة عمّا حواليها، واحتفظوا بشخصيتهم ولم يختلطوا بأي عنصر من عناصر السكان الوطنيين، سواء في ذلك الأقباط والمسلمين، ولم يسمحوا لسكان مصر أو أي جزء من أجزاء مملكتهم بالانخراط في صفوفهم، ولم يتزوجوا منهم إلاّ فيما ندر. وقصروا أعمال الجندية على أشخاصهم وذهبوا إلى أبعد من ذلك، حيث اشترطوا ألاّ ينخرط في سلك المماليك الحربية إلاّ من يستوردونه من جديد فأبناء المماليك مهما عظم شأنهم كانوا يقصرونهم على الأعمال الكتابية والادارية ولا يسمحون لهم بالدخول في الجيش. أما أهل مصر في عصر المماليك فكانوا يتولون وظائف القلم، ولم يكن لهم نصيب في الجيش العامل، اللهم إلاّ في بعض الأعمال غير العسكرية كأعمال الأئمة والصنّاع والأتباع.

وبذلك يمكن القول بأن مماليك مصر لم يختلطوا بأهلها، بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسيتهم وعاداتهم. وهذه العزلة والترفّع انفرد بهما المماليك حتى صاروا من مميزاتهم. ولم يكن زواج بعض المماليك من بنات القضاة وكبراء المسلمين في القاهرة داعياً إلى تغيير عادة العزلة فيهم وحثّهم على الاختلاط بغيرهم. ولعل هذا كان ترفعاً منهم على أهل البلاد المحكومين، ومحافظة على الارستقراطية التي تؤهل للعرش بدون نظر إلى اختلاف أصول أفرادها وما مروا به من رق وعبودية.

وكان المماليك فيما بينهم ينقسمون إلى أحزاب متطاحنة لا تربأ بنفسها عن استعمال أدنأ طرق التنكيل الواحد بالآخر. ومع هذا فإن الانقسام الداخلي لم يؤثر على وحدتهم كطائفة أو مجموعة إزاء العالم الخارجي الذي كانوا يواجهونه كعصبة واحدة، ممّا يفسر لنا سر قوتهم وانتصاراتهم الحربية إزاء عدوهم المشترك.

ومن خواص المماليك جمعهم بين الصلاح في نظر الشعب والاستمساك بقواعد الدين من حيث الصلاة والزكاة وتشييد العمائر الدينية وغير ذلك، بينما نجدهم في حياتهم الخاصة لا يتورعون عن إتيان أشنع المنكرات والتعسف في أذى الخلق وإهراق الدماء دون اكتراث بأبسط المبادىء

الإنسانية، وهذا المزج بين الصلاح والفسق يظهر لنا أن المماليك كانت لهم شخصيتان؛ واحدة عامة وأخرى خاصة. واحدة تعمل على إعلاء كلمة الإسلام، وأخرى لا تأبه بما يبشر به الإسلام من قواعد العدل والخلق الكريم، هذا إذا استثنينا أفراداً قلائل من بينهم اتصفوا بحب الخير والدين الصحيح. وعلى ذلك فإننا لا نظن أن شعورهم الديني كان عميقاً، ولكنهم رغم رذائلهم كانوا في بعض الأحيان يتخذون مظهراً خارجياً فيه شيء من التقوى ويوزعون الإحسان والعطايا [1] والمعروف أن المماليك كانوا لا يجدون بأساً في الاحتفاظ بنسبة تشير إلى صاحبهم الأول أو إلى أستاذهم، وتذكر هذه النسبة بعد أسمائهم؛ فالمعز أيبك التركماني تسمى بالصالحي النجمي لأنه كان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب، كذلك الظاهر بيبرس تسمى بالعلائي البندقداري، لأنه كان في أول أمره من مماليك الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، ثم تسمى بالصالحي بعد أن انتقل إلى خدمة الصالح نجم الدين أيوب وصار من مماليك البحرية الخ...

وكذلك كانت بعض الألقاب التي تطلق على المماليك تشير إلى الثمن الذي دفع فيهم، ومثال ذلك لفظ «الألفي»

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية ص ٢٨.

الذي عرف به السلطان قلاوون والذي يشير إلى الألف دينار التي اشتري بها في صباه[1] . ومن ذلك نرى أن المماليك كانوا ينسبون إما إلى صاحبهم الأول أو إلى التجار الذين باعوهم أو إلى الثمن الذي دفع فيهم. على أنه من المعروف كذلك أنه يضاف إلى أسمائهم في بعض الأحيان النسبة إلى الوظائف التي شغلوها أولاً بين غلمان السلطان. وربما كان السبب في هذا كله يرجع إلى الرغبة في التمييز بين المماليك ذوي الإسم الواحد، حيث كان الإقبال على بعض الأسماء كبيراً جداً حتى لقد ورد ذكر اسم نحو عشرين مملوكاً باسم بيبرس في نهاية القرن السابع الهجري[2] .

وكان المملوك شديد التمسك بسيده أو أستاذه الذي اشتراه وقام بتربيته. وكانت رابطة الأستاذ بمماليكه رابطة لا انفصام لها، فقد كانوا يخلصون له في السراء والضراء، ويكونون رهن إشارته يوجههم كيفما شاء لتحقيق مآربه. وثمة علاقة أخرى كان لها شأنها حيث نبتت بين الأمراء الذين نشأوا عند سيد واحد رابطة زمالة قديمة. وكان يطلق على هؤلاء إسم «الخشداشية» وهذه الرابطة كانت لها قوة واحترام، ويشهد بصحة ذلك ما تكرر في عصر المماليك من

---

(١) ابن شاكر: فوات الوفيات ٢ / ١٣٤ .

(٢) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية ص ٢٩ .

أن السلطان كان يرقي خشداشة إلى آتابك، بل الظاهر أنه كان يحدث كثيراً أن خشداش المملوك يستولي على موجوده عند وفاته [١] . وقد أبطل السلطان الظاهر بيبرس هذه العادة سنة ٦٢٢ هـ [٢] . على أن بعض المؤرخين ينكرون وجود رابطة الزمالة أو الخشداشية، ويذهب إلى أن وسط المماليك لم تكن فيه صداقة ولم تكن فيه أبسط أنواع الزمالة [٣] ، وخاصة حين يرتقي المماليك ويصبحون على المسرح الأول، ويتنافسون في الحصول على الوظائف الكبيرة أو على السلطنة، حينذاك تنسى بينهم الزمالة والصداقة، ويصبح مقياس نجاح كل منهم عدد من يحيطون بهم ويلوذون بحزبه من صغار المماليك.

وكان باب الترقي في حكومة المماليك مفتوحاً على مصراعيه لكل مملوك يثبت كفايته فيرقى من مملوك بسيط إلى أمير خمسة أو عشرة أو خمسين أو مئة أو ألف حتى يبلغ السلطنة نفسها. على أن المماليك لم يكونوا متساوين من حيث فرص الترقي، ذلك أن المماليك الذين كانوا في خدمة الأمراء كانوا يظلون مماليك أرقاء طوال حياتهم. أما

---

(١) علي إبراهيم حسن: نفس المصدر والصفحة.

(٢) تاريخ ابن الفرات ١١/٢٥.

(٣) Wiet: Précis de L'histoire d'esypte 2/238

مماليك السلطان فإن باب الترقي لم يكن يفتح لهم إلّا إذا أعتقهم السلطان وانضموا إلى الحرس السلطاني الذي كان نواة الجيش الحقيقية، أو انضموا إلى غلمان السلطان ممن يلحقون بوظائف البلاط المختلفة [1]. ولم يكن السلطان إلّا واحداً من أمراء المماليك قدّموه على أنفسهم لقوة شخصيته ووفرة أنصاره وكثرة جنوده وقدرته على التغلب على المنافسين من الطامعين في العرش، أو لأنه كسب قلوبهم بكرمه وجوده وكفايته ووعوده. وبذلك كان مملوك اليوم هو سلطان الغد.

ولم يكن هناك اعتبار لنشأة المماليك أو أوطانهم الأولى، بل كانت الجامعة الكبرى بينهم أنهم مماليك غرباء عن هذا البلد الذي تطورت نظمه، فسنحت لهم الفرص بالاستيلاء على أزمة الحكم فيه. وكان المملوك لا يصل إلى مرتبة سيده إلّا بعد أن يتربى تربية عسكرية ويتثقف تثقيفاً عاماً في مدارس خاصة أعدت لهذا الغرض، ثم بعدئذ يلحق بجيش سيده ويتدرب على النشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل [2].

وكانت سياسة سلاطين المماليك تقوم على الإكثار من المماليك، فقد استكثر منهم السلطان قلاوون حتى يكونوا

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية ص ٣٠.
(٢) المقريزي: الخطط ٢/٢١٣ ـ ٢١٤.

عوناً له ولأولاده من بعده في تثبيت عـروشهم. وبذل الأمـوال الوفيرة في شـرائهم وأحسن إليهم وقد بلغ عـددهم إثنا عشـر ألفاً، وهو عـدد لم يجمعه أحـد من سلاطين مصـر قبله [1] . وتعهـدهم قـلاوون بـالتـربيـة والتهـذيب وأوصلهم إلى أعلى المنـاصب فصار منهم الأمـراء الكبار ونـواب ممـالـك الشـام والحصون الإسلاميـة وغير ذلـك من مناصب الـدولة الكبـرى التي برهنوا فيها على شجاعـة فائقـة وكفاءة ممتـازة. وقد أثـر عن ممـاليك قـلاوون أنهم كانـوا يهابـونـه ولا يخـرجـون عن طاعته.

وقد أنشأ السلطان قلاوون فرقة جديدة من المماليـك من الأرمن والجركس وأطلق عليها إسم «البرجية» نسبة إلى أبراج قلعة الجبل [2] التي اقاموا بهـا. وإذا عرفنـا أن كتبغا ولاجين وبيبرس الجاشنكير كانوا من مماليـك تلك الفرقـة الجديـدة، رغم أنهم اغتصبـوا العرش من ابنـه النـاصـر محمـد، أمكننا القول أن الملك انحصر في ذرية قلاوون ومماليكه منذ وفاتـه

---

(١) المقريزي: الخطط ١/٩٥.

(٢) كانت القلعة تعرف إذ ذاك بقلعة الجبل تميزاً لها عن قلعة الـروضة التي أنشـأها السلطان صـلاح الـدين سنـة ٥٧٢ واتم بنـاءهـا ابن شقيقه الملك الكامل سنة ٦٠٤. وصارت مقراً للدواوين السلطانية ودور الحكومة.

ـ المقريزي: الخطط ٢/٢٠٦ والسلوك ١/٤٣٦.

سنة ٦٨٩ هـ/١٢٩٠ م حتى نهاية دولة المماليك البحرية [١] . وعرفت تلك الطائفة باسم «الشراكسة» أيضاً وبلغ عددها ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك. وأسكن قلاوون جنس الخطا والقفجاق بقاعة عرفت باسم «القاعة الذهبية» وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم إسم «الخاصكية» [٢] . وقد أدمج السلطان قلاوون ذراري المماليك البحرية الصالحية في طائفة المماليك التي أنشأها في أوائل سلطنته «فجمعهم ورتّب لهم الجوامك والعليق والكسوة ورسم بأن يكونوا جالسين على باب القلعة، وإلى اليوم طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية» [٣] . وقد جرى سلاطين المماليك على اختيار كبار الموظفين من بين مماليكهم، ولذا عنوا بتربيتهم وتثقيفهم وتعليمهم فنون الحرب في طباق قلعة الجبل [٤] التي كانت

---

(١) يذكر ابن تغري بردي عبارة تنص على أن من وصل إلى العرش في عهد دولة المماليك البرجية «كان أما من ذريته وأما من مماليكه أو مماليك أولاده وذريته»

- النجوم الزاهرة ٣٢٧/٧.

(٢) المقريزي: الخطط ٢١٤/٢.

(٣) المقريزي: السلوك ٦٥٨/١.

(٤) كان عدد طباق المماليك السلطانية اثنتي عشرة طبقة، كل طبقة منها قدر حارة تشتمل على عدة مساكن تسع نحو الف مملوك.

- المقريزي: الخطط ٤٤٣/١ و٢١٣/٢ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك ٢٧.

عبارة عن ثكنات الجيش المملوكي. وكثيراً ما تفقد السلاطين بأنفسهم شؤون تربية مماليكهم حيث أثر عن السلطان قلاوون أنه كان يخرج في كثير من أوقاته إلى رحبة القلعة عند موعد تناول الطعام ويأمر بعرضهم عليه، ويتفقد ما يقدم للمماليك من الأطعمة للوقوف على مبلغ اتقانها. فإذا رأى عيباً اشتد على المشرف ونهره وعنّفه. وبلغ من شدة عنايته بأمر المماليك وحرصه على ترقية شؤونهم وتوفير أسباب الراحة لهم أنه كان يقول «كل الملوك عملوا شيئاً يذكرون به ما بين مال ورجال وعقار، وأنا عمرت أسواراً وعملت حصوناً لي ولأولادي وللمسلمين وهم المماليك»[1]. وقد أحسن قلاوون تربية مماليكه حتى صار منهم الأمراء والنوابّ «فكان بهم منفعة للمسلمين ومضرّة للمشركين، وقيامهم في الغزوات معروف وشرهم عن الرعية مكفوف»[2]. وقد سار الناصر محمد على سياسة أبيه في العناية بأمر المماليك وزاد عليه ما كان يفيضه عليهم من العطاء الجزيل والمنح الوفورة، إلى أن استقر رأيه على تركهم وشؤونهم فصاروا كما وصفهم المقريزي «وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم قدراً وأخسّهم وأشحّهم نفساً، وأجهلهم بأمور الدنيا وأكثرهم

---

(١) المقريزي: الخطط ٢/٢١٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٣٢٣.

إعراضاً عن الـدين، ما فيهم إلاّ من هـو ألصّ من فأرة وأزنى من قـرد وأفسـد من ذئب. لا جَـرَم ان خـربت أرض مصـر والشـام بسوء إيـالة الحكـام وشدة عبث الـولاة وسوء تصـرف أولي الأمر»[1] .

كـان السلطان رأس الـدولـة ويتـولى سلطاته نيـابـة عن الخليفة العباسي، الذي لم يكن يتردد في منح تفويضـه إلى كل أمير يرقى إلى منصب السلطنة. وبمقتضى هـذا التفويض يملك السلطان جميـع السلطات، من تنفيـذيـة وتشـريعيـة وقضائية، ولكن احتفاظه بمنصب السلطنة كان يتوقف أكثر ما يكون على قوة مماليكه ومقدار إخضاعه لغيرهم من المماليك ولذا حفل تاريخ دولة المماليك بالسـلاطين الذين ارتقـوا إلى منصب السلطة عن طـريق القـبض على الـسلطة، وجـعـل السلطان الجـالس على العرش ظـلاً لإرادتهم، كخـطوة أولى تمهد للخطوة الثانية التي كانت عزل السلطان ونفيه، أو قتله، ثم إعـلان نفسـه سلطانـاً. ولـذا كـان الحـرس السلطاني أو الخـاصكية أصحـاب امتيـازات كبيـرة في الـدولـة. ولـم يكن السلطان يتردد في منحهم إياها مادام وجـوده في السلطة، بل وجـوده على قيد الحيـاة، يتوقف عليهم. فكـان دائم الهبـات

---

(١) المقريزي: الخطط ٢/٢١٤.

لهم، سواء الألقاب أو المنح السلطانية من الاقطاعات. وكان رئيس هـذا الحرس في الـواقع هـو السلطان الحقيقي، الذي لم يكن السلطان الجـالس على العـرش يتـردد في تنفيـذ أي طلب لـه. وكان هـذا الرئيس ومن يعـاونه من القـواد يملكون حق امتلاك مماليك تابعين له، وخاصّين به.

كان كل واحد من هؤلاء القواد يشغل منصباً من منـاصب الـدولـة. وأهم هـذه المنـاصب منصب الـدوادار، أي نـائب السلطنـة، وكان يتـولى الحكم في غياب السلطان الـذي كان دائم السفر إلى سوريا من أجل كمال إشرافـه على كل أجـزاء دولته، وكثيراً مـا كان رئيس الحـرس السلطاني هو الـدوادار. وإذا استقـر السلطان في القاهـرة لمدة، اعتمـد على ما يصله من الأخبـار عن طريق جهـاز البريـد الذي يتـولى نقل البـريد السلطاني بين أجزاء الدولة، فكان يشرف على عدد كبيـر من الخيول والمراكز البريـدية، وعـدد هائـل من الحمام الـزاجل الذي يستخدم لهذا الغرض. وكان رئيس هذا الـديوان يسمى بأمير القلم، وكان يحتفظ بالخـاتم السلطاني من أجل تـوقيع الرسائل. وكان هذا الديوان يتبع ديوان الإنشاء، الـذي يتولى أمر العلاقات الخارجية وتحرير الرسائل إلى حلفـاء السلطان، سـواء كـانــوا من المسيحيين أو المسلمين. وقـد احتفظ هــذا الديوان بصور عن صيغ خاصة كـان يكتبها إلى هؤلاء الملوك

والأمـراء كـل وفق مكـانتـه. وإذا لـم يتـولّ رئيس الحـرس السلطاني منصب الدوادار، اقتصر عمله على إمـارة العسكر، وسُمّي أتابك العسكر أو الأمير الكبير. ويعتمد على عدد من رؤساء النوبة. وكان رئيس القصر السلطاني يسمى الاستدار. أما المشرف على السلاح فكان يسمى السلحدار، فيما يسمى رئيس الفرسان بأمير الأخور. وكان السـاقي هو الـذي يحتفظ بأدوات المائدة والشراب السلطاني، بينما يشرف الجاشنكير على السكرتارية وصغار الحراس، كما يشـرف الجمدار على ملابس السلطان. ويشرف أمير الشيكر على أمور الصيد. أمـا المشـرف على المـطبـخ السلطاني فكـان يسمى استـدار الصحبـة. كما كـان يشرف على كـل ما يتعلق بـالاحتفـالات السلطانية أمير الـطبلخانـه، الذي كـان يشرف على عـدد من أصحاب الطبول الكبيرة والصغيرة يدقونها أمـام باب السلطان في دخوله وخروجه. ولم يكن هذا امتيازاً خـاصاً بـالسلطان، بـل كـان الأمـراء يملكـون مثـل هـذا الحق وإن كـان عـدد الضاربين على الطبول دائماً أقل عدداً من الضاربين أمام باب السلطان.

وكان المشرف على ملابس الحفلات والجواهر والسيوف الخاصة بالسلطان يسمى بالـطشت خانـة، كما كـان المشرف على شراب السلطان يسمى الشراب خانه. أما المشرف على

مخزن الحوائج السلطانية فكان يسمى بالحوائج خانه. . .

ومن هنا نرى أن المراسم أيام الدولة المملوكية لم تكن تقل تعقيداً عما نراه في الوقت الحاضر في أشد البلاد تمسكاً بالتقاليد وأكثرها حضارة. كما كانت المواكب السلطانية أكثر ما تكون اناقة وعظمة، حيث كان لكل طبقة من المماليك لباسها الخاص، وقد اتخذ من أغلى الأقمشة وزيّن بالذهب والفضة وكان الأمراء يتبعون السلطان في موكبه ويحفون به كل حسب رتبته. ويحيط بكل أمير مماليكه وأمراؤه الخاصون به. وكان السلطان يحاول دائماً إقامة نظام للوراثة ينحصر في أولاده، فيأخذ البيعة لأحدهم ويشهد عليها العلماء والقضاة الأربعة. ولكن هذا كله كان إسمياً، فالأمر في النهاية مرجعه إلى القوة التي تقرر السلطان القادم.

٥ ـ ميزات التأليف التأريخي في عصر ابن عبد الظاهر

إذا كان سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م، وسقوط السلطنة والإمارات الأيوبية في مصر والشام والجزيرة على يد المماليك ثم على يد المغول ما بين سنتي ٦٤٨ ـ ٦٥٨ هـ/١٢٥٠ ـ ١٢٦٠ م، قد أوقع التاريخ السياسي في المشرق الإسلامي في نوع من الانقطاع، وأعطاه كله مسيرة جديدة، فإن مسيرة

الفكر التاريخي، شأنها شأن مسيرة الفكر العربي الإسلامي كله لم تنقطع، وإن يكن أصابها التبدل في الشكل والجوهر، فقد تغيّر المركز الجغرافي، فبعد أن كانت بغداد هي القطب الأكبر توزّعت الدنيا العربية مكانتها. فالمراكز متعددة؛ للقاهرة نصيب منها. ولدمشق نصيب آخر، ولصنعاء من ذلك حظ، ولسمرقند أو هراة، أو تبريز حظوظ. كما انقطع الإبداع وساد الاتباع والتقليد. واختلف مؤرخو هذه الفكرة في أنصبتهم من الابتكار والوعي التاريخي فإلى جانب من نستطيع اعتبارهم في عداد الطبقة الأولى من المؤرخين، فقد كان البعض مجرد نَقَله أو مختصرين يفتقدون حتى الحد الأدنى من الجديد الذي يُعطون.

أما الكثرة من العاملين في التاريخ فكانت من علماء الدين، من الفقهاء والمحدثين والقضاة والقراء والمدرسّين والشهود، يليهم الموظفون وبخاصة كتاب الإنشاء ورجال الحاشية السلطانية. ثم يأتي بعدهم بعض الملوك وبعض الأمراء أو أبناء القواد العسكريين الذين كانوا يجدون من السعة في الرزق ما يسمح لهم باتخاذ التاريخ هواية. وندر أن نجد مؤرخاً لا ينتمي إلى أحد هذين الفرعين الأساسيين؛ علماء الدين، أو العاملين في الإدارة الحكومية. وعلى هذا صار تدوين التاريخ مقصوراً على هؤلاء، في حين غاب ذلك

التنوع الذي عرفته العصور السابقة في أوضاع المؤرخين الاجتماعية.

وفي خصوص المادة التاريخية، فإن أهم ما يلاحظ هو وفرتها. ومع أن عدداً من الأنواع التاريخية قد ضمر أو تقلص أو انقرض، فإن المادة التاريخية لم تنقص من الناحية الكمية، إن لم نقل أنها زادت ومرد ذلك أن التاريخ بطبيعته تراكمي تزداد مادته مع الأيام دون انقطاع، ومؤرخو العصر المملوكي لم يعتبروا عصرهم أكثر من تتمة للدولة الإسلامية من ناحية، وللفكر الإسلامي من ناحية أخرى، لذا وجدوا أمامهم سبعة قرون من التاريخ على الأقل يعزفون منها. وإذا أضفنا إلى هذا أن حضور العصور الإسلامية كان حضوراً دائماً في الأذهان بسبب مكانتها الدينية واعتبارها العصر الإسلامي بامتياز.وأن حضور علماء العصور السابقة كان بدوره حضوراً دائماً بسبب ما قدموه للفكر الديني الإسلامي ممّا يفسر لنا سبب إكثار المؤرخين من تداول أخبار التاريخ الإسلامي الأول وكتابة وتلخيص ثم إعادة كتابة وتلخيص تراجم العلماء بمختلف الأشكال والأحوال والصورة، الأمر الذي زاد في ضخامة الكمية التي تركها مؤرخو تلك الفترة ويمكن أن نعروسبب هذه الوفرة في المادة التاريخية إلى شعور المؤرخين بأن من مهمة التاريخ أن يُعنى بالتفاصيل،

حتى الصغيرة منها، وبالرجال، حتى المتواضعي القيمة والعطاء. ومن هذا وذاك، ومن كثرة اضطراب الأحداث واختلافها وتعدد مراكزها السياسية وأبطالها من جهة، ومن تكاثر العلماء وأشباه العلماء الذين أصبحوا يكونون طبقة ممتازة منتفعة، ويتوارثون العلم والمناصب من جهة أخرى، دخلت على التاريخ اشتات هائلة من الأحداث وأعداد بالألوف من التراجم، جعلت مجلدات الكتب التاريخية تتضخم الضخامة التي لا توازيها سوى ضخامة كتب الفقه والتفسير، وجعل ما بين دفتيها يتسع للدقائق بحيث أن الكثيرين كانوا يسجلون أحداث الساعة شهراً بشهر، بل يوماً بيوم وساعة ساعة أحياناً، ويسجلون من تفاصيل الأحداث ما يرهق الكتب التاريخية ويزيد من حجومها. وقد أدى هذا التطويل إلى نتيجتين طبيعيتين هما قبول الذيول من ناحية، لإكمال النواقص، وقبول المختصرات من ناحية، كعمل علمي، للتسهيل. وقد تكاثرت من الذيول والمختصرات أعداد الكتب والمؤلفات دون كبير إبداع أو المجيء بجديد. وحملت هذ الأعمال أسماء مختلفة من قبيل. التهذيب والانتقاء والاختيار والتلخيص، بجانب كلمات الإيجاز والاختصار والانتخاب والاقتطاف.. بل أن بعض المؤلفين كان يذيّل هو نفسه على كتابه، أو يختصر كتابه الواسع، ثم يعود كرّة أخرى فيوجز المختصر. وتتصل بهذا كله ظاهرة

أخرى، هي محاولة عدد من الكتّاب تلخيص الكتب الصادرة في العصور السابقة، وبعضها تواريخ الحوادث، لكن كثرتها في علوم الرجال. وقد يجمعون في التلخيص بين أكثر من كتاب، فيخرج من كل أولئك كتاب جديد دون الاتيان بجديد، فتزداد بذلك المؤلفات وتتكاثر المادة. كما أن التأليف في التاريخ لم يكن صعب المنال، كالتأليف في الفقه أو التفسير أو النحو، ولا كانت تحكمه القيود الشديدة التي كان يتطلبها التأليف في الحديث أو في الأصول والفروع. بل كان يكفي جمع المعلومات وطلب التراجم أحياناً من أصحابها، ثم ضمها بعضها الى بعض دون الحاجة إلى الكثير من التوثق والتحرّج في الرواية. وهكذا دخل باب التاريخ أعداد من أصحاب المذكرات، ومن كتاب السِّيَر للحكام، ومن مسجلي الأحداث اليومية وجامعي التراجم المعاصرة، أو مختصري تراجم السابقين، لأن هذا العمل في معظمه لا يكاد يحتاج إلى أي إعداد علمي مسبق يجاوز صوغ الجملة السليمة والصلة بمصادر الأخبار. وقد دخله أحياناً أناس اشتهروا بالتاريخ، وإن لم يكونوا يحسنون الكتابة السليمة بالعربية.

وقد طرق مؤرخو العصر المملوكي مختلف الأنواع التاريخية، على تباين في الكثرة والقلة، فألّفوا في التاريخ العالمي والإسلامي العام، وخاصة في مصر والشام، وكتبوا

في ذلك المطولّات الواسعة كل السعة. وإذا كان الكثير منها لا يعدو أن يكون تكراراً للتواريخ السابقة. أو تنحصر قيمته فيما كتب وقدّم من تاريخ عصره ليس غير، فإن بعضها يحتفظ بقيمته وأصالته حتى بالنسبة للعصور السابقة، لأنه حفظ، بما اقتطف من هنا وهناك، قطعاً وصفحات هامة من مؤلفات تاريخية كثيرة ضاعت إلاّ من هذه المقتطفات. كما كتبوا في التاريخ الاقليمي. وإذا كان هذا النوع التاريخي لا يظهر في الشام أو العراق، فإنه كان من النوع الطاغي المسيطر في مصر واليمن،وجمع بعض المؤرخين الكتب في تواريخ بعض الدول المعينة كالدولة الأيوبية في كتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» لإبن واصل، والدولة الملوكية كما في كتاب «التحفة المملوكية» لبيبرس المنصوري مثلاً، كما صنفوا في تواريخ المدن ذات الطابع الديني أو الدور السياسي المميز وخاصة في مصر كالروضة البهية لابن عبد الظاهر، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي وحسن المحاضرة للسيوطي... وكتب المؤرخون في هذا العصر تواريخ عصورهم وأزمانهم، فكانوا شهود العصر، يجدون لذة طريفة في تتبع الأخبار وسردها في توقيتها الدقيق وفي تفصيلها الدقيق بل أن بعض الكتاب اختار حادثة مشهورة هزّت الناس فجمع أخبارها.

وأغرق مؤرخو العصر المملوكي في خدمة علم الرجال.

أُلفوا فيه أكثر وخير ما ألفوا، فأصبح جزءاً أساسياً من التدوين التاريخي، فلم تعد الكتب تقتصر على الأحداث السياسية والوقائع، بل تذيل كل سنة، أو تذكر في ثنايا الأخبار، وفيّات الرجال وتراجمهم مقتضبة، بالإضافة إلى ما يختص لهذا النوع التاريخي من الكتب المفردة، كما يلفت النظر رواج سوق السيّر وكتب المناقب.

أما مناهج التأليف فقد استمرت على الطُرق التي سلفت فيما قبل هذا العصر دون كبير تجديد، فتشابهت أشكال التدوين وطرقه، لكن الفكر التاريخي عرف تطوراً واضحاً نلمس ملامحه في شيوع فكرة الانسانية العامة ووحدتها. هذه الروح التي هي أشبه بالروح العالمية صارت هي الأساس في الفكر التاريخي. وقد اتصل بهذه الفكرة، فكرة أخرى متممة لها هي الإيمان المطلق بما يمكن أن نسميه الروح الإسلامية الشاملة التي ترى في تاريخ الإسلام تاريخ البشرية الأخير، وفي دولة الإسلام الدولة العالمية الحائزة رضى الله على الأرض. وقابلت الشمولية الإسلامية في الجو السياسي وأكملتها الموسوعية في الفكر فظهرت الموسوعات التي يجد فيها الدارس كل ما يحتاج من العلم. وكانت هذه الموسوعات على الوان وأنواع تبعاً للحاجات التي كتبت من أجلها، أو لأهواء مؤلفيها ونوازعهم. فمنها ما أخذ الطابع

الأدبي مثـل «نهايـة الأرب في فنون الأدب» للنـويري، ومنهـا الجغرافي البشري التـاريخي مثل مسـالك الأبصـار للعمري، ومنها الديواني مثل صبح الأعشى للقلقشندي .ومنهـا التاريخي الخالص كتاريخ الاسلام للذهبي، ومنها موسـوعات الرجال كالوافي بالوفيات للصفدي، ومنهـا اللغوي مثل لسان العرب لابن منـظور. وقد فـاز التاريـخ في جميع هـذه الموسـوعات بـالنصيب الأوفى، فحتى الموسـوعات اللغوية فإنهـا حفظت وجمعت بعض أمور التاريخ.

الفصل الثاني

التعريف بابن عبد الظاهر ومؤلفاته

١ ـ حياته

محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين أبو محمد عبد الظاهر بن نجدة، الجذامي الرّوحي، السعدي، المصري الضرير[1].

ولد هذا الكاتب سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م في بيت من

---

(١) ترجمة ابن عبد الظاهر نجدها لدى
ـ ابن شاكر: فوات الوفيات ١/٤٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨/٣٨ ـ ٣٩، السيوطي: حسن المحاضره ١/٥٦٠، ابن أياس: بدائع الزهور ١/١٠٥، بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٦/١٩ ـ ٢١ عمر كحالة: معجم المؤلفين ٦/٧٤، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي ١/٤٥.

أشهر بيوتات العصر في القاهرة، توفّر له المجد والجاه، والفضل والغنى والترف. اشتغل أفراده بالقضاء والفقه، وتولّى كثير منهم دواوين الإنشاء، وليس فيهم إلاّ من اشتهر بفقه وحديث، أو أدب وفضل، أو علم وعمل، فهو من بيت الكتابة والبلاغة كما وصفه القلقشندي [1].

ولا بد هنا من الإشارة إلى هذا النسب العربي الذي كان محي الدين متمسكاً به كل التمسك فالرّوْحي نسبة إلى رَوْح بن زنْباع أحد كبار رجال الدولة الأموية زمن الخليفتين مروان ابن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان [2]. قال الحمداني: ومنهم (أي من سعد) بطن من جذام بنو عبد الظاهر المعروفون. قال (أي شهاب الدين بن فضل الله العمري) في (مسالك الأبصار): رأيته (يعني محمي الدين بن عبد الظاهر) ينسب نفسه إلى روح بن زنباع. وزنباع بن جذام [3].

لا نعرف الكثير عن حياة ابن عبد الظاهر، لكن وسطاً كهذا ينشأ به ومنه عبد الله ابن عبد الظاهر خليق بأن يوفّر له حظه من طلب العلم وتحصيل المعرفة. فقد درج عمداء

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى ١٠٣/١٣.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/٣٦٠ ـ ٣٧٩ ـ ٣٨٢ ـ ٦٦٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٥/٨ هامش ١.

الأسـر الـرفيعـة على العنايـة البـالغـة في تعليم أبنـائهم وتخـريجهم. وعلى هـذا فقـد عُني القـاضي رشيـد، والـد محي الدين، وهو من هو علماً واختصاصاً بتدريس القراءات والعلوم العربية، عناية خاصة بولده، لاسيّمـا فيما يـرجع إليـه من توجيه وايقاف على لغة العرب ولهجاتها.

ثم لم يكتف الوالد بـذلك، فـدفعه إلى مَهَـرة العصر من الفقهاء والمحدثّين، والأدباء والحذّاق، يأخذ عنهم طرائقهم، ويتلقى منهم. فسمـع عن جعفـر الهمـذاني، وأخـذ عـن عبـدالله بن إسماعيـل بن رمضـان، وتفّقـه على يـوسف بن المخيلي. كمـا تـأدّب وكتب عن جمـاعـة من أهـل صنـاعـة التـرسل في عصـره. وحـذق ابن عبـد الـظاهـر هـذه العلوم والفنـون، فحفظ القرآن وروى الحـديث، واستـظهـر نمـاذج رائعـة من كلام العـرب، منثـورهم ومنـظومهم. وألم بـأخبـار المـاضين وسيـرهم، وبَصُر بـالأنسـاب واتقن اصـطلاح كـل شيء، وتضلّع في العلوم العربية، وعرف دخائلها وأسرارهـا. وجرى على طرائق المتقـدمين من الكتاب ممـرناً على ذلـك ملكته، شاحذاً بهذا الاسلوب قريحته، محققـاً بذلـك كل مـا تتطلبه صناعة الكتابة من شروط، فـإذا ابن عبد الـظاهر مُلّم من كل شيء بطرف، وإذا هو مثال نادر ماثـل في استعداداتـه وكفاءاته، وفيه يقول النويري.

«كان رحمه الله من أجل كتاب العصر وفضلاء المصر، وأكابر أعيان الدول، والذي افتخر بوجوده أبناء عصره الأُوَل، له من النظم الفائق ماراق صناعة وحسناً، ومن النثر الرائق ما فاق بلاغة ومعنى، فقصائده مدونة مشهورة، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة. وكلامه كان يكون لأهل هذه الصناعة، وعليهم حجة، وطريقه في البلاغة أسهل طريق، وفي الفصاحة أوفى محجة»[1].

اشتغل ابن عبد الظاهر بالكتابة، بل كان زعيم الكتّاب في عصره، كما كان القاضي الفاضل[2] في أيام صلاح الدين. وكان كأستاذه الفاضل وزيراً مسموع الكلمة، عظيم الجاه، لذلك التف حوله كثير من الكتّاب والشعراء وأخذوا يكيلون له المدح والثناء. وكان صاحب ديوان الإنشاء لكل من الملك الظاهر بيبرس، والملك المنصور قلاوون، والملك الأشرف خليل، من سلاطين المماليك البحرية، كما كان له شأن إبان حكم هؤلاء جميعاً. وكان مقر هذا الديوان

(١) النويري: نهاية الأرب ١٠١/٨.

(٢) هو عبد الرحيم بن علي بن السعيد التميمي (٥٢٩ - ٥٩٦ هـ/١١٣٥ - ١٢٠٠ م) البيساني المعروف بالقاضي الفاضل وزر للسلطان صلاح الدين الأيوبي وتولى له ديوان الإنشاء. عرفت طريقته في الكتابة والإنشاء بالطريقة الفاضلية، وقلّدها من جاء بعده من المنشئين. له ديوان شعر مطبوع.

قاعة الصاحب بقلعة الجبل[1] حيث ترد إليه المكاتبات من جميع أنحار الولايات والممالك التي بينها وبين مصر علاقات سياسية. كما كانت تحرر فيه الكتب التي يرسلها السلطان إلى الملوك والأمراء. وفي كتب ابن عبد الظاهر، وكذلك في صبح الأعشى للقلقشندي، والتعريف بالمصطلح الشريف لإبن فضل الله العمري كثير من المكاتبات التي تبودلت بين سلاطين مصر وبين إيلخانات المغول في فارس وخانات مغول القفجاق، وملوك أوروبا وأمرائها. وتعتبر هذه الوثائق على جانب عظيم من الأهمية، من الناحية السياسية، لأنها تمدنا بكثير من المعلومات الطريفة عن نظم الحكم في مصر في عصر سلطنة المماليك.

وكان صاحب ديوان الإنشاء، في أوائل عهد المماليك يلقب تارة باسم «صاحب الدست الشريف» ويُعبّر عنه تارة باسم «كاتب الدرج» وتارة أخرى باسم «كاتب الدست». وبقي الأمر على ذلك الحال إلى أن تقلد الديوان القاضي فتح الدين ابن محي الدين بن عبد الظاهر في أيام السلطان قلاوون، فتلقب بلقب كاتب السر، لأنه كان يكتم سر السلطان.

---

(١) المقريزي: الخطط ١٣/١٥٠ ـ ١٥١.

يقول ابن تغري بردي[1]: وأما الملك المنصور قلاوون فإنه في شهر رمضان (أي سنة ٦٧٨ هـ) عزل الصاحب برهان الدين السنجاري عن الوزارة بالديار المصرية، وأمره بلزوم مدرسة أخيه قاضي القضاة بدر الدين السنجاري، بالقرافة الصغرى، واستقر مكانه في الوزارة الصاحب فخر الدين ابراهيم بن لقمان، صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالديار المصرية، وتولى عوضه صحابة الديوان القاضي فتح الدين محمد بن القاضي محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر، وهو أول كاتب سر كان في الدولة التركية وغيرها، وإنما كانت هذه الوظيفة في ضمن الوزارة، والوزير هو المتصرف في الديوان، وتحت يده جماعة من الكتاب الموقعين، وفيهم رجل كبير كنائب كاتب السر الآن، سمي في الأخر صاحب ديوان الإنشاء».

كما كان يلقب بلقب صاحب ديوان الإنشاء أو ناظر الإنشاء الشريف. وكانت مهام هذه الوظيفة قبل عهد السلطان قلاوون تدخل ضمن اختصاص الوزير. وظل الحال على ذلك حتى جاء السلطان السعيد بركة خان بن بيبرس (٦٧٧ - ٦٧٨ هـ)، إذ رأى هذا السلطان أنه ينبغي أن يكون للملك كاتب سر يتلقى عنه المرسوم شفاهاً. وكان قلاوون

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٩٣/٧.

وقت ذلك أكبر الأمراء، فأيّد رأي السلطان بركة خان. غير أن المشروع لم ينفذ إلاّ بعد أن صار قلاوون سلطاناً. يقول ابن تغري بردي إن الملك المنصور قلاوون هو الذي أحدث وظيفة كاتب السر.

«لما كان أيام الملك الظاهر بيبرس كان الدوادار يوم ذاك بلبان بن عبد الله الرومي. قال الشيخ صلاح الدين خليل الصفدي: كان من أعيان الأمراء ومن نجبائهم، وكان الملك الظاهر بيبرس يعتمد عليه، ويحمله أسراره إلى القُصَّاد. ولم يؤمّره إلاّ الملك السعيد بن الملك الظاهر بيبرس، واستشهد بمصاف حمص سنة ثمانين وستمائة. وكان يباشر وظيفة الدوادارية، ولم يكن معه كاتب سر، فاتفق أنه قال يوماً لمحي الدين بن عبد الظاهر: أكتب إلى فلان مرسوماً أن يطلق له من الخزانة العالية بدمشق عشرة آلاف درهم، نصفها عشرون ألفاً. فكتب المرسوم كما قال له، وجهزه إلى دمشق. فأنكروه، وأعادوه إلى السلطان وقالوا ما نعلم! هل هذا المرسوم بعشرين نصفها عشرة أبو بعشرة نصفها خمسة؟ فطلب السلطان محي الدين وأنكر عليه ذلك، فقال: يا خَوَند، هكذا قال لي الأمير سيف الدين بلبان الدوادار. فقال السلطان: ينبغي أن يكون للملك كاتب سر يتلقى المرسوم منه شفاهاً.

وكان الملك المنصور قلاوون حاضراً من جملة الأمراء،

فسمع هذا الكلام، وخرج الملك الظاهر عقيب ذلك إلى نوبة أبلستين، فلما توفي الملك الظاهر، وملك المنصور قلاوون اتخذ كاتب سر. انتهى كلام الصفدي باختصار. قلت: وفي هذه الحكاية، دلالة على أن وظيفة كتابة السر لم تكن قديماً، وإنما كانت الملوك لا يتلقى الأمور عنهم إلا الوزراء.

قضية فخر الدين بن لقمان مع القاضي فتح الدين محمد بن عبد الظاهر في الدولة الأشرفية خليل ابن قلاوون، وهو أنه لما توزر فخر الدين بن لقمان، قال له الملك المنصور، من يكون عوضك في الإنشاء؟ قال: فتح الدين بن عبد الظاهر، فولي فتح الدين وتمكن عند السلطان وحظي عنده. وفتح الدين هذا هو الذي قلنا عنه في أول الكتاب إنه أول كاتب سر كان، وظهر اسم هذه الوظيفة من ثمَّ [1].

وهكذا تذهب رواية ابن تغري بردي إلى أن الابن فتح الدين كان «أول كاتب سر في الدولة التركية وغيرها» و«صاحب ديوان الإنشاء ومؤتمن المملكة بالديار المصرية» [2] كما ذكر أباه محي الدين، فقال: «وسار في

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٣٣٢.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٢٩٣ و٨/٣٥.

الدولة المنصورية قلاوون برأيه وعقله وحسن سياسته وتقدم على والده، فكان والده من جملة الجماعة الذين يصرفهم أمره ونهيه» [1] وعلى هذا فقد كان فتح الدين المقدّم عند السلطان، وأما الأب محي الدين فكان المقّدم في كتابة الإنشاء والمعروف بكتبه ومؤلفاته. وجدير بالذكر أن الإبن توفي في دمشق قبل أبيه بعام واحد أي في سنة ٦٩١ هـ ولم يخلّف أيّ كتاب. وهذا يؤكد أن أباه كان يقوم بالعمل في ديوان الإنشاء،اويصرف الأمور. في الوقت الذي كان ابنه يشغل عملاً سياسياً وهو أمانة سر السلطان وقد اسند هذا العمل إليه بعد وفاة ابنه.

كان صاحب ديوان الإنشاء معظماً في كل زمان، مقدماً على من عداه من أصحاب المنازل العالية. وكان السلاطين يلقون إليه بأسرارهم ويخصونه بخفايا أمورهم ويطلعونه على مالا يطلعون عليه أولادهم، ولا اخصّ الأخصاء حتى الأمراء والوزراء وغيرهم. وكان ينظر في معظم أمور الدولة حتى زاد نفوذه واتّسع له مجال التدبير والتصرف إلى أن صار أمير المملكة ورأس أعيانها، لا يضع الملك في أمر مملكته حرفاً إلّا ما يخرج عن مشورته وبعد اطلاعه عليه.

وكانت وظيفة صاحب السر في عصر المماليك أعظم

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٥/٨.

الوظائف الديوانية وأجلّها قدراً ويلقب صاحبها باسم «صاحب الجناب الكريم». وليس أدل على علو مركز كاتب السر إذ ذاك من أنه كان يحضر بحكم منصبه حلف اليمين التي يؤديها ولاة الأقاليم على أثر تعيينهم في مناصبهم الجديدة ويقوم بكتابة مراسيم توليه الولاة وتزويدهم بنصائحه كما كان عليه أن يقرأ جميع الرسائل الواردة على السلطان وأن ينشىء جميع الرسائل والوثائق الهامة. ويظهر أن محي الدين بن عبد الظاهر قد قام بهذه المهام جميعاً، فقد حضر يمين الولاء الذي أقسمه هذا الملك للخليفة العباسي سنة ٦٦١ هـ، وأنشأ خطبة الخلافة. وكتب عام سنة ٦٦٢ هـ التقليد الذي رسم به الملك السعيد ولياً للعهد، وحررّ عقد الزواج بين هذا الملك وابنة قلاوون[1]، وكذلك كتب التقليد الذي رسم به ابن قلاوون ولياً للعهد[2]. وفي سنة ٦٦٦ هـ صحب أحد الأمراء إلى عكا لتلقي يمين الولاء من حاكمها[3] وقام بتدبير شؤون الدولة حين حكم ابن قلاوون نيابة عن أبيه، الذي كان غائباً في رحلة حيث قضى ردحاً من الزمن في دمشق. حتى إذا أسنّ تولى وظيفته ابنه فتح الدين الملقب بالصاحب.

---

(١) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ١٠/١٧٣ ـ ١٧٧.
(٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور ص ١٢.

توفيّ محي الدين بن عبد الظاهر يوم الأربعاء ثالث شهر رجب ٦٩٢ هـ/١٢٩٣ م ودفن بالقرافة بتربته التي أنشأها قبيل موته[١].

٢ - ابن عبد الظاهر الأديب والشاعر

ابن عبد الظاهر أديب ممتاز انطبع نثره وشعره بكل عوامل بيئته وعصره فجاء نضيراً كنضارة عيشه ورائقاً يستمد لمعانه وتوشياته من خلال البيئة الموسرة التي عاش في كنفها، والتي تقوم مبرهنة عليها، ثقافته بجميع عناصرها.

لابن عبد الظاهر شعر ونثر أحدهما قد تكلّفه ولم يكن مطبوعاً فيه، وثانيهما كان فيه إماماً. فالأول شعره، ولا يمكن أن نسميه إلّا نظماً إذ كل ما فيه صناعة وتقليد. فهو يأخذ معاني المتقدمين ويضربها بطابع التوشية، فيجنس مرة، ويصرع أخرى، يوري حيناً ويقتبس أو يضمن حيناً آخر. وهي وإن لم تدل على مقام شعري يستحق به صاحبه لقب الشاعر لقصوره في المحاكاة وعدم انتقاء النسج المناسب لمعانيه، لكنه قد نجح في صناعته ولم تعوزه فيه سوى الملكة الشعرية الفطرية الموهوبة.

يرتبط بعض أشعار ابن عبد الظاهر بخدمته، ويتصل

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٨/٨.

بمركزه السياسي والإداري في الدولة، إذ يفرض عليه بحكم وظيفته، وهو المرموق بعين الاكبار، المنتظر للحديث في كل موقف، أن يرثي ولي نعمته وموضوع سيرته التي نظمها، فينشد عند وفاة الملك الظاهر بيبرس قصيدة نزع فيها إلى طريقة القدامى، وملأها بصور هي من جنس ما نجد في العصور السابقة عند الشعراء منها [1] .

ما مثل هذا الرزء قلب يحمل
كلا ولا صبر جميل يجمل
الله أكبر أنها لمصيبة
منها الرواسي خيفة تتزلزل
لهفي على الملك الذي كانت به
الدنيا تطيب فكل قفر منزل
الظاهر السلطان من كانت له
منن على كل الورى وتطوّل
لهفي على ارائه تلك التي
مثل السهام إلى المصالح ترسل
لهفي على تلك العزائم كيف قد
غفلت وكانت قبل ذا لا تغفل

---

(١) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ٢٤٤ ـ ٢٤٨ حيث أورد القصيدة كاملة.

ما للرمال تخولتها رعدة
لكنها إذ ليس تعقل نعقل
سهم أصاب وما رمى من قبله
سهم له في كل قلب مقتل
أنا إن بكيت دماً فعذري واضح
ولئن صبرت فإنني أتمثل
خلف الشهيد لنا السعيد فأدمُعٌ
منهلّة في أوجه تتهلل
لا زال يعتذر الزمان إليكم
مما جنى ولديكم يتنصل

فهذه المقابلة في البيت ما قبل الأخير، وذلك الجناس بين تعقل ونعقل، وهذه الطريقة التي ينتهي بها إلى بكاء الدم مرة والتمثل عند المصيبة أخرى، والحزن من أجل فقدان الشهيد، والبشر بمناسبة تولي الملك السعيد الجديد ليست إلّا أثراً من آثار كتاب ديوان الإنشاء اقتضاه عصرهم وأوجبته تقاليدهم.

أما أشعاره الأخرى فهي التي تدل على نفسيته ومرحه وعيشه حقاً، فهو قد نظمها مختاراً، ولكنه أخضعها لطوابع العصر التي كان كلفه بها متناهياً بالغاً به إلى حد الإسراف في بعض الأحيان. فإذا قرأنا له قطعة ظننا بادىء الأمر أنه لم

يتكلف النظم إلاّ بسبب اطلاع تلك الفنون البديعية. والواقع أنه شغف بذلك شغفاً كبيراً فأصبحت تجري على لسانه في النظم وغير النظم. ومن شعره الدال على هذا الصنع، يقول متغزلاً

قلت للعين طيف إلفك ساري
فتهيي له ولو بعواري
فتهيت لقربه وتهادت
من دموع إليه بين جواري
يتسابقن خدمة فتراهن
لديها كالدر أو كالدراري
ثم لما تحقق الطيف أن
تلك دموع خشى جوار البحار
بات جاري ودمع عيني جاري
فتحيّرت بين جار وجاري
يالقومي ما بين هذا وهذا
كيف يبقى السلو حسن اصطباري
مفرد في جماله إذ تبدى
خجلت منه جملة الأقمار
كيف أرجو الوفاء وعاملت
غريماً من طرفه ذا انكسار

ذو حــواش يــبــدو لــنــا مــلـم

الـريحـان من خـده فجـلّ البــاري

فيــه وجــدي مـحـقـق وسـلـوي

وكــلام الـعــذول مـثــل الـغـبــار

ولســاني في حبــه قـلم الشعــر

ورقـي الـمـكـتــوب بـالـطـومــار

كــم أكـن عـنــه وأكـتـم وجـدي

وأرى الـحـب هــاتــك الاســتــار

فليس بهذه القطعة من معنى جديد، وهي مع ذلـك تعنى بالصناعة عناية كبرى وبالخصوص في قوله:

بــات جــاري ودمــع عيـنـي جــاري

فـتـحـيّـرت بـيـن جـار وجــاري

وله قطع صغيرة أخرى منها:

ونــاطقـة بــالـروح عن أمــر ربهـا

تـعـبّــر عـمــا عـنــدنــا وتـتـرحـم

سكتنـا وقـالت للنفـوس فـاطـربت

فـنحـن سكـوت والـهــوى يتـكلم

ففي هذا البيت الأخير تضمين، وقال أيضاً:

نسب الـنــاس للحـمــامـة حـزنــاً

وأراهــا في الحــزن ليست هنالـك

خضبت كفهـا وطـوّقت الجيـد

وغـنـت ومـا لـحـزيـن كـذلـك

فهـذان البيتـان يـدلان على تفنن خـاص في التعليـل، ولطف تصرف في التخريج والوصف. وقال أيضاً:

لئن جاد لي بـالـوصـل ليلاً خـلالـه

وأصبـح محـرومـاً رقيب ولائـم

آلا إنمـا الأقـدار تحـرم سـائـلاً

وآخـر يـأتـيـه رزقـه وهـو نـائـم

ففي البيت الأول تضاد بين الليل والصبح، والبيت الثاني يشير فيه إلى معنى طالما عبّر عنه المتقدمون مثل ابن الرومي وغيره.

ومن شعر ابن عبد الظاهر أيضاً:

إن شئت تنـظرني وتنـظر حـالـي

قـابـل إذا هـبّ النسـيم قـبـولا

تـلقـاه مـثـلي رقـة ولـطافـة

ولأجـل قـلبـك لا أقـول عليـلا

فهـو الـرسـول إليـك مني ليتني

كنت اتخـذت مع الـرسـول سبيـلا

ولا يخفى ما في البيت الثاني من حسن التعليل وما في البيت الثالث من تضمين.

وأما نثره الذي دلتنا عليه رسائله فهو رائق لا يخلو كله من الكلفة، يجنح فيه إلى الطريقة الفاضلية جنوحاً تاماً. وهو متنوع أيضاً كتنوع نظمه لأن منه ما يتصل بديوان الإنشاء، وهو عبارة عن مراسلات رسمية تصدر عن الدولة أو عن الملك ونلاحظ فيها التقاليد الواجب مراعاتها عند المماليك، والقسم الثاني من رسائله هو تلك الرسائل التي حررّها بقصد خاص شخصي أو باقتراح من أصدقائه عليه، يخط فيها بقلمه ما يخطر له ويحرّر، ما شاء من أغراض، لا فيما يكلف به أو يُملى عليه من الموضوعات. وهذا النوع من الرسائل نلمس فيه الإنطلاق الكامل من قيود الخدمة، من غير أن تغيب عنا، ولو إلى حين، تلك المميزات الاصلية الخاصة بطريقة الإنشاء في عصر المماليك فهذا نص يكتبه محي الدين بن عبد الظاهرة مستدعياً بعض أصحابه إلى الحمام فيقول:

«هل لك، أطال الله بقاءك إطالة تكرع بها من منهل النعيم وتتملى بالسعادة تملي الزهر بالوسمي والنظر بالحسن الوسيم، في المشاركة في حمّام جمع بين جنة ونار، وأنواء وأنوار وزهر وأزهار، قد زال فيه الاحتشام فكل عار ولا عار، نجوم جاماته لا يعتريها افول، وناجم رخامه لا يغيره ذبول،

تنافست العناصر على خدمة الحال به، تنافساً أحسن كل التوصل فيه إلى بلوغ أربه، فأرسل البحر بماء جسده من جسده لتقبيل أخمصيه إذ قصرت همته عن تقبيل يده، ولما لم ير التراب له في هذه الخدمة مدخلاً، تطفل وجاء وما علم أن التسريح لمن جاء متطفلاً، والنار رأت أن لا أحد بعبأ بمباشرتها يستقل، وأن فيها معنا بفرض الخدمة لا يخل، لأن لها حرمة هداية الضعيف في السرى وبها دفع القر ونفع القرى. فأعلمت ضدها الماء فدخل وهو حار الأنفاس، وغلت مراجله عليها فلأجل ذلك داخله من صوت تسكابه الوسواس، والهواء أنه قصر عن مطاولة هذا المبار، فأمسك متهيباً ينظر ولكن من خلف زجاجة تلك الدار، ثم أن الأشجار رأت أنها لا شائبة لها في هذه الخطوة، ولا مساهمة بشيء من تلك الخلوة، فأرسلت من الأمشاط أكفاً أحسنت بها وجوه الفرق، ومرت على سواد الغدائر الفاحمة كما يمر البرق، وذلك على يد قيم قيّم بحقوق الخدمة، ماهر فيما يعامل به أهل النعيم من أسباب النعمة، خفيف اليد مع الأمانة، موصوف بالمهابة عند أهل تلك المهانة».

إن هذه القطعة الطويلة من النص تظهر لنا من المعاني الجمالية والطرائف الصناعية شيئاً كثيراً ويتبين من ورائها كلها أن المقصود من كتابة الرسالة لم يضع أثناء تلك الظلال والصور، ولكن الكاتب قد عبّر عنه من طريق غير عادي

يرضي الخاصة ولا يفهمه العامة، ويتهالك عليه رواد المذاهب الفنية في طريق القول ولا يقعد عن طلبه أو تصور أحواله إلاّ من رضي بالقناعة في هذا الباب وفضل الاكتفاء عل ركوب الصعاب.

«أما النوع الثاني من الأغراض الشخصية التي كان يتولى التحرير فيها باقتراح من أصدقائه ونظرائه تحقيقاً لنكته واستجلاباً لصور رائعة في التعبير تنهج منهجاً خاصاً وتسلك سبيلاً معيناً، فذلك كرسالته التي يوري فيها بالصناعة العربية وما يريد شيئاً من ألفاظها ولا مصطلحاتها، ولا إسماً من أسماء علماء العربية، ولا عنواناً لمصنف من مصنفاتهم، وإنما يذكر ذلك تورية باللفظ وتصرفاً فيه يقصد من ورائه المعاني البسيطة الأخرى التي يدل عليها اللفظ دلالة لغوية ومثال هذا قوله:

«حرس الله نعمة مولاي! ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلف. ومنادي جوده لا يرخم، وأحمد عيشه لا ينصرف. ولا عدِم مستوصل الرزق من براعته التي لا تقف الوصل، ولا عدمت نحاة الجود منْ نواله كل موزون ومعدود، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود، ولا خاطبت الأيام ملتمسة إلا بلام التوكيد، ولا عدوه إلا بلام الجحود. هذه المفاوضة إليه أعزه الله! تفهمه أنا بلغنا أن فلاناً أضمر سيدنا له فعلاً غدا به منتصباً للمكائد، ومعتلاً وليس موصولاً

كـالذي بعلة وعـائد. ومـا ذلك لأن معـرفتها داخلهـا التنكير، وقدر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير».

لو أخذنا عينّه من هـذا النص، جملة أو جملتين، نتفهم ما يريده من المعاني والأغـراض فقولـه مثلاً «هـذه المفاوضـة إليه أعزّه الله تفهمه أنا بلغنا أن فلاناً أضمر سيدنا له فعلاً غدا به منتصباً للمكائد، معتلاً وليس موصولاً كالذي بعلة وعائد». استعمـل فيه كلمـة «أضمر» مريداً أخفى، و«فعـلاً» وأراد بـه عملاً، و«منتصباً» بمعنى معـرضاً، و«معتـلاً» بمعنى مريضـاً، و«موصولاً» أي مكرماً، و«الصلة» العطية، و«العائد» العـرف. وإذا الجملة إذا ما أردنا تحريرها من جديد من غير تورية بهذه المصطلحات لكانت: هذه المفاوضة إليـه أعزه الله تفهمـه أنا بلغنا أن فلاناً أخفى سيدنا له عمـلاً غدا بـه معرضـاً للمكائـد ومريضاً وليس مكرماً كالذي كـان لعطيـة أو عرف. فـإلى هذا الحد كان التصـرف في الاستعمال ينتهي بصـاحبه. وهـو من غيـر شك إذا طـال أضجر، لكن إذا كـان عن اقتراح اقتضت المفاخرة والدلالة على القـدرة من الكاتب الإتيـان بمثل هـذه الرسالة وأطول فيهـا، على أنها لم تكن العـادة الملتزمـة عند الكتاب إلاّ قليلاً.

٣ ـ مؤلفاته

خلف ابن عبد الظاهر آثاراً متعددة في الشعر والنثر، وقد ألف في الأدب والسيرة والتاريخ وهكذا فتراثه يتكون من:

١ ـ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر: (بيبرس الذي تسلطن ما بين سنتي ٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ/١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م). وهي منظومة شعراً. ومنها مخطوط المجلد الأول في المتحف البريطاني أول ١٢٢٩ (رقم ٢٢٣٣١ Add) وهو يمتد من أول السيرة إلى مطلع سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥ م.

قامت بنشر جزء منه، الموجود في مكتبة المتحف البريطاني، الدكتورة فاطمة صادق وهو جزء من رسالتها للدكتوراة، وقد طبع بمطبعة جامعة أكسفورد بالباكستان سنة ١٩٠٦، وكان هذا جزءاً من السيرة. ويذكر عبد العزيز الخويطر في تقديمه لكتاب حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية لشافع بن علي العسقلاني أنه عثر على نسخة أخرى للروض الزاهر في مكتبة جامع السلطان سليم بتركيا أتم منها حيث درسها ضمن بحثه للدكتوراه ووعد بنشرها.

وقد اختصر ناصر الدين شافع بن علي بن عباس بن

إسماعيل بن عساكر بن شافع الكناني العسقلاني ثم المصري الضرير الشافعي المعروف بسبط عبد الظاهر، وهو ابن أخت المؤرخ ابن عبد الظاهر، السيرة التي كتبها خاله محي الدين الكاتب للسلطان بيبرس. وكان محي الدين قد طلب إليه اختصارها بسبب طولها فلم يتهيأ له ذلك في حياة خاله. ثم اختصرها بعد ردح من الزمن سنة ٧١٦هـ،لأن المؤلف كما قال اثبت فيها الغث والسمين، وكرّر ما يشافه به سمع السلطان من إطراء [1] . ويبدو أن السبط لم يختصر فقط، ولكنه أيضاً صحّح بعض الأحداث وشرح بعض ما تجاوزه الخال من الأمور الحرجة، وفسرّ بعض التصرفات، كما أثبت بعض الأمور التي أهملها محي الدين عمداً، أو تفاصيل أخرى مرّ عليها مرّ الكرام، وأوضح معلومات عمد فيها إلى الغموض قصداً واسمى هذا المختصر «حسن المناقب السرية المتنزعة في السيرة الظاهرية». ومن كتاب شافع هذا نسخة مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٧٠٧ في ١٥٦ ورقة. وقد نشرت بتحقيق عبد العزيز الخويطر في الرياض سنة ١٩٧٦ مع مقدمة وفهارس في ١٩٠ صفحة.

٢ ـ تشريف الأيام والعصور بسيرة السلطان الملك

(١) شافع العسقلاني: حسن المناقب السرية ١٦.

المنصور: (قلاوون): وفي المكتبة الوطنية بباريس قطعة منها تشمل المجلدين الثاني والثالث تحت رقم ١٧٠٤ وتتناول سيرة قلاوون من سنة ٦٨٠ هـ وتنهي بقصيدة للمؤلف في مدح الملك المنصور، وقد نشرت هذه السيرة بتحقيق مراد كامل (القاهرة سنة ١٩٦١، نشر وزارة الثقافة) وسنختص هذا الكتاب بدراسة تحليلية مفصلّة.

٣ ـ الإلطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكيّة الأشرفية: وهي في سيرة الملك الأشرف خليل (٦٨٩ ـ ٦٩٣ هـ/١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م). وقد بقي منها الجزء الثالث الذي يتضمن الشهور الأخيرة من سنة ٦٩٠ هـ، إلى ربيع الأول من سنة ٦٩١ هـ، وهو بخط المؤلف في مخطوطة ميونيخ رقم ٤٠٥. وقد نشرها المستشرق أ. موبرغ A. Moberg وترجمها إلى الهولندية سنة ١٩٠٢، ولعلها آخر ما كتبه ابن عبد الظاهر قبل موته. وقد أغفل الناشر بعض وثائق الوقف الواردة فيه.

٤ ـ مقامة عن مصر والنيل والروضة منها مخطوط في برلين ٨٥٥٠:٢ ولابن عبد الظاهر كتب تاريخية أخرى ضائعة هي:

٥ ـ الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة: وقد استعان به المقريزي كثيراً في خططه وبخاصة ما يتعلق

بالآثار [1] . كما اعتمده القلقشندي في غير موضع من الصبح [2] .

٦ ـ النجوم الدريّة في الشعراء المصرية : في شعراء عصره .

٧ ـ تحري الصواب في تهذيب الكتّاب : وهو في التعليم .

٨ ـ مختصر سيرة ابن المأمون البطائحي الوزير وقد ذكرها ونقل منها المقريزي .

٩ ـ كتاب «تمام الحمائم» تناول فيه الحمام الزاجل واستخدامه وأنسابه .

١٠ ـ الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم . وهو في ٤٩ ورقة من الحجم الصغير .

١١ ـ رسالة ابن عبد الظاهر : وهي مخطوطة في ست ورقات من الحجم الكبير . كتب عليها «رسالة ابن عبد الظاهر ، استخراج الإمام العالم العلّامة صلاح الدين الصفدي ، تغمدّه الله بالرحمة والرضوان» وهي رد على شخص تنقّصه وذمّه .

١٢ ـ ديوان شعر منه نسخة خطيّه محفوظة بمكتبة الجامعة الأزهرية .

---

(١) المقريزي : الخطط ٢/٢٠٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣٦٥ الخ . . .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ٣/٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ و٨/٤٠ ـ ٤٢ و١٠/٩٨ ، ١٦٠ .

الفصل الثالث

دراسة تحليلية لكتاب تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور

١ ـ تشريف الأيام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور

ينسب حاجي خليفة صاحب كشف الظنون هذه السيرة إلى القاضي الفاضل العسقلاني المتوفى سنة ٥٩٦ هـ، وفي هذا خطأ كبير. أما بروكلمان فبعد أن ذكر أنها لمجهول[١] عادل فاستدرك وذكر أنها لشافع بن علي سبط ابن عبد الظاهر[٢] اختصر فيها السيرة التي كتبها جده. لكن في

---

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٦/٢٠.

(٢) هو ناصر الدين شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل بن عساكر بن شافع الكناني العسقلاني ثم المصري الضرير الشافعي ويعرف بسبط ابن عبد الظاهر وهو ابن أخت المؤرخ

نص السيرة ما يقطع بنسبتها إلى صاحبها عبد الله الذي يشير إلى نفسه فيقول «المملوك عبد الله بن عبد الظاهر»[1].

٢ ـ مخطوطاته وطبعاته

لم يصلنا من السيرة إلّا الجزءان الثاني والثالث، وإن كانت المخطوطة توحي أن هناك جزءاً مفقوداً، حيث بدأت بالعنوان «الجزء الثاني».

يشغل الجزء الثاني مائة وسبعاً وأربعين ورقة، وهو يذكر في الصفحة الأخيرة ما يلي: آخر الجزء الثاني من السيرة السلطانية الملكية المنصورية ويتلوه. . . ، وهنا يبدو أن المؤلف أراد أن يكتب الجزء الثالث، ولكنه أهمل ذلك لسبب لا نعلمه وربما تكون سقطت بعض الأوراق. ويشغل هذا الجزء الأوراق ١٤٧ ـ ٣٧٦.

وليتصل الحديث، عمد محقق السيرة مراد كامل إلى زيادة فصل نقله عن ابن الفرات، ويشمل الحوادث من٣ . شعبان ٦٧٨ هـ/١٢٧٩ م حتى ١٠ جمادي الأخرة من عام ٦٨٠ هـ/١٢٨١ م.

محي الدين بن عبد الظاهر ولد بالقاهرة سنة ٦٤٩ هـ وتوفي بها سنة ١٣٣١/٧٣٠ م.

ـ ابن شاكر: فوات الوفيات ٢٣٤/١، المقريزي: السلوك ٣٢٧/٢.

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور ص ٨٢، ١٣٠، ١٨٠.

٣ ـ مضمون السيرة

يتناول القسم المتبقي من السيرة حياة السلطان المنصور قلاوون في الفترة الممتدة ما بين ٦٨٠ و٦٨٩ هـ، وهو يتألف من فصول متداخلة يشكل السلطان خلالها محور الأحداث حيث يرصد فيها نشاطاته على الصعيدين الداخلي والخارجي.

والسيرة تحتوي على طائفة من الأخبار المتنوعة تتناول شؤون الدولة المملوكية في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، كما تسلط الأضواء على العلاقات بين السلطان وكبار موظفيه من تعيين وعزل، ومصادرات وعقوبات وبين الموظفين والرعية، إضافة إلى أخبار النيابات في بلاد الشام والديار المصرية وعلاقات السلطنة بالدول الأخرى. ويمكننا تصنيف النواحي المتعدّدة التي تناولتها السيرة فيما يلي:

أ ـ علاقة المنصور بالتتار

ظهر المغول التتار على المسرح التاريخي إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وذلك في الجهات الشمالية من بلاد الصين، في الأراضي التي نبتت منها أصول قبائل الهون والترك، وهم يمتّون إليهم بصلة قوية. ويطلق على المغول

إسم التتار أو التتر أيضاً. وقد اختلفت تسميتهم باختلاف العصور. ويظهر أن الشعوب التي كانت مغولاً في الأصل واللغة كانت تسمي نفسها باسم التتر أو التتار، إلاّ أن تلك التسمية قد غيّرت رسمياً بعد جنكيز خان، وهو الثامن من سلالة مؤسسي هذه الأسرة بكلمة مُغُل أو مغول، في بلاد منغوليا وفي أواسط آسيا، وكذا في بلاد الهند فيما بعد.

بدأت جحافل المغول زحفها من المشرق، فاجتاحت في طريقها كل الممالك الإسلامية بدءاً بالدولة الخوارزمية، وانتهاءً بالدولة العباسية التي سقطت بأيديهم سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م حيث اعملوا فيها معاول التخريب والسيف والنار سبعة أيام، وقتلو الخليفة المستعصم وأفراد أسرته وأكابر رجال دولته[١]. ثم واصلوا زحفهم غرباً على بلاد الشام، فاستولوا على حلب في صفر ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م، فميافارقين بعد ذلك بشهور. وتلتها دمشق التي سلّمت لهم بدون قتال[٢]. واقتدت أنطاكية بدمشق في التسليم، ولكنها لم تسلم مثلها من التخريب.

وفي سنة ٦٥٨ هـ بعث هولاكو برسالة شديدة اللهجة إلى قطز سلطان مصر المملوكي يهدده فيها ويدعوه للتسليم

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٧.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٠٤.

لأنه لا قِبل له به وبجيوشه[1]. فما كان من قطز إلّا أن مزّق الرسالة وقتل الرسل، ثم جنّد جيشاً لملاقاة هولاكو. وقد التقى الجيشان في عين جالوت صباح يوم الجمعة ١٣ أيلول ١٢٦٠ م/٢٦ رمضان ٦٥٨ هـ، حيث هزم المغول وقتل قائدهم كتبغا، وتتبع قطز فلولهم حتى بيسان، فنكلّ بالفارين منهم[2].

وفي طريق العودة من هذا النصر المؤزر. وقرب الصالحية بمديرية الشرقية قتل السلطان قطز على يد بيبرس البندقداري وجماعة من أمراء المماليك في ١٥ ذي القعدة ٦٥٨ هـ/٢٢ تشرين الأول ١٢٦٠ م.

واصل السلطان بيبرس الكفاح ضد المغول فانتصر عليهم في عدة معارك أشهرها معركة الفرات. فهزمهم، وخاض فيها مياه ذلك النهر وهم مدبرون، وذلك في ١٨ جمادي الأولى عام ٦٧١ هـ/١٢٧٣ م[3].

فلا غرابة إذا ظل العداء قائماً بين الدولتين، حتى إذا حلّ الخلاف بين المماليك إثر وفاة الظاهر بيبرس عبرت جيوش

---

(١) المقريزي: السلوك ١/٤٢٧ ـ ٤٣٩.

(٢) السلوك ١/٤٣١، النجوم ٧/٧٩، المختصر ٣/٣١٤، ابن أياس ١/٩٧، الذيل ٢٠٨.

(٣) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ٥٥ ـ ٥٧.

المغول الفرات ودخلت حلب ونهبتها. وفرّ أمامهم أهل البلاد هاربين حيث وفدوا إلى مصر طلباً للأمان.

أعدّ المنصور قلاوون للأمر عدته وجمع جيشاً ضخماً من المماليك التركمان وبدو الصحراء، وعرب الحجاز بلغت عدّته ثمانين الفاً. وقابل المغول قرب حمص حيث دارت معركة يوم الخميس ٣٠ تشرين الأول ١٢٨١/ ٦٨٠ هـ. وقد تمكنت ميمنة التتار من كسر ميسرة الجيش المملوكي وقتلت منها مقتلة عظيمة، وهرب الباقون إلى حمص. وعندما لحقتهم فرسان التتار تابعوا هربهم جنوباً. ولكن إذا كانت ميسرة المصريين قد هزمت هذه الهزيمة المنكرة، فإن ميمنتهم المكونة من الأمراء الأيوبيين وبدو الصحراء صمدت أمام ميسرة التتار، بل أرغمتها على الهرب بعد أن قتلت قائدها. وبذلك أصبح نصفا الجيشين يسيران في اتجاهين متضادين. ميمنة التتار تطارد ميسرة المماليك نحو مصر، بينما كانت ميمنة المماليك تطارد ميسرة التتار نحو الشرق. وكان المنصور قلاوون يرقب هذا كله ومعه الف من مماليكه. ولم تكد ميمنة التتار المنتصرة تعرف خبر هزيمة الجيش أمام ميمنة المصريين حتى ارتدت لتأخذ مكانها في المعركة. وكانوا في عودتهم مسرعين بحيث مروا على مكان السلطان دون أن يتبيّنوا موقعه. ولم يكادوا ينصرفون عنه حتى لحق بهم وفاجأهم من الخلف، فكانت هزيمة كبيرة، وجرح

قائدهم منكو تمر بن هلاوون وما لبث أن مات غماً [1]. وتهد هذه المعركة من المعارك الفاصلة بين المماليك والتتار بعد معركة عين جالوت. وكان أباغا بن هولاكو وخليفته (٦٦٣ - ٦٨٠ هـ/١٢٦٥ - ١٢٨٢ م) فاوض الصليبيين في تنظيم حملة مشتركة للقضاء على دولة المماليك والاستيلاء على بيت المقدس، فأتت هزيمة حمص ضربة قاصمة لإطماع المغول والصليبيين معاً.

مات أباغا غماً لما لقيه المغول من هزيمة ذهبت بمقدمي دولته. ووقع الاختيار على تكودار، وهو ثالث إيلخانات المغول في بلاد فارس، ووأول من أسلم منهم. وكان تكودار قد شبّ على المسيحية وتعمد في صباه باسم نيقولا، لكنه دخل في الإسلام عندما بلغ سن الرشد واتخذ اسم أحمد [2]، وأرسل كتباً إلى فقهاء بغداد [3] أعلن فيها رغبته في حماية الإسلام والذود عنه والعمل على إعلاء

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور ص ٤.

(٢) يذكر ابن عبد الظاهر أن بعض المغول رضوا بتمليك احمد (تكودار) على مضض لأن الياسة أو قانون المغول يفرض أن يتولى الابن الأكبر الحكم بعد أبيه، وكان احمد اكبر أبناء هولاكو بعد أخيه ابغا.

- تشريف الأيام والعصور ص ٤ وسنشير إليه في الحواشي بالسيرة.

(٣) نص الكتاب في السيرة ص ٥.

شأنه. كما أظهر رغبته في أن يظل في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين. ثم بعث بنبأ إسلامه إلى السلطان قلاوون في كتاب مؤرخ في شهر جمادي الأولى عام ٦٨٠ هـ/آب ١٢٨١[١] وحمل الرسالة قاضي القضاة شمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين التيتي المعروف بابن الصاحب وزير ماردين[٢]، فاستقبلهم المنصور قلاوون استقبالاً ودياً يحيط به مماليكه، وحمل الوفد كتاباً يفيض صداقة ووداً رداً على ما وصله منه[٣].

ولكن عهد تكودار لم يطل، فقد قتل عام ٦٧٣ هـ/آب ١٢٨٤ م، وخلفه أرغون ابن شقيقه أباغا، الذي حكم نحواً من سبع سنين (٦٨٣ - ٦٩٠ هـ/١٢٨٤ - ١٢٩١ م). وقد راسل البابا طالباً مساعدته في حربه ضد المماليك على أن يعتنق الدين المسيحي هو وقومه. لكن الاتفاق لم يقع بين الطرفين لإنشغال البابا بمشكلات في أوروبا.

وعندما مات أرغون، عادت العلاقات إلى التحسن من جديد بين المماليك والتتار، واستمر الهدوء بين الجانبين في عهدي قلاوون وابنه الأشرف خليل.

---

(١) نص الكتاب في السيرة ٦ - ١٠.

(٢) المقريزي: السلوك ١/٧٢٣.

(٣) السيرة ١٠ - ١٦.

ب ـ علاقة المنصور قلاوون مع الصليبيين

كانت تهديدات المغول قد ألجأت السلطان بيبرس إلى عقد معاهدة صلح مع إمارتي طرابلس وعكا ومملكة بيت المقدس عام ٦٧١ هـ/١٢٧١ م، ومدتها عشر سنوات [١]. وقد دلت شروطه على أن الفريقين كانا بحاجة إليه، ولكن دون أن تزول فكرة طرد الصليبيين من أذهان المماليك. وقد تضمنت هذه المعاهدات السماح للسفن المصرية بالقدوم إلى موانيها علاوة على الأمان لجميع رعايا السلطان حين يقدمون إلى الأملاك الصليبية. كما تعهد الصليبيون بعدم إقامة تحصينات جديدة. واشترط كل منهما على أن موت أحد الطرفين المتعاقدين ينقض ما أبرم من صلح بينهما. وقد استمر الوضع علي هذه الحال دون أن يقع أي حادث يستحق الذكر، إذ كان بيبرس قد انصرف إلى قتال المغول والإسماعيلية حتى توفي ٦٧٦ هـ/١٢٧٧ م.

وقد تهيأ للسلطان قلاوون أن يتمم ما بدأه سلفه الظاهر بيبرس، إذ ما انقضى الخطر المغولي وتبادل ملكهم رسائل الود، ثم سفارات الهدايا مع المماليك، حتى استؤنفت المناوشات اعتباراً من سنة ٦٨٥ هـ/١٢٨٥ م، بين

---

(١) أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى ص ٢٢٩
عبد العزيز السالم: طرابلس الشام في العصر الإسلامي ٢٦٩.

الصليبيين والمسلمين على يد قلاوون. فبدأ بحصار اللاذقية واستولى عليها [1]، ثم هاجم في سنة ٦٨٥ هـ/١٢٩٥ م طرابلس، وكانت حينذاك مدينة حصينة آهلة بالسكان. ولكن رغم ذلك سقطت بعد شهرين من حصارها، ودمّرت وأسر كثير من أهلها ولجأت مرغريت صاحبة صور إلى التماس الصلح مع السلطان قلاوون وبذلت لقاءه نصف دخل ولايتها جزية للسلطان، ووعداً بعدم إقامة تحصينات جديدة [2].

وكانت عكا أمنع حصون الصليبيين، فرغب قلاوون في الاستيلاء عليها منتهزاً فرصة تحرش سكانها ببعض التجار المسلمين المارّين بها. وهاجم المدينة، فزحف عليها بجيشه لحصارها. ولكن المنية عاجلته وهو في طريقه إليها. وتولى بعده على العرش في مصر ابنه السلطان الأشرف خليل، الذي هاجم سنة ٦٩١ هـ/١٢٩١ م عكا وحاصرها. ورغم دفاع جنودها وإمدادات قبرص لها فإنه تمكن من دخولها سنة ٦٩٢ هـ/١٢٩٢ م، بعد أن ظل يحاصرها أربعاً وأربعين يوماً [3]. وهكذا تسلم المسلمون عكا بعد أن لبثت في أيد

---

(١) ابن عبد الظاهر: السيرة ص ١٥١.
(٢) اثبتنا نص وشروط هذه المدنة في ملاحق الكتاب.
(٣) ابن عبد الظاهر: السيرة ص ٢٧٢.

الصليبيين قرناً من الزمن. ثم توجه بعد ذلك إلى صور وحيفا فسقطتا بيده بعد أن لاقتا أهوالاً شديدة. ثم سلمت بيروت ونجت بذلك من التخريب وباستيلاء الأشرف خليل عام ٦٩٢ هـ/١٢٩١ م على حصن عكا والمدن الساحلية، زالت مملكة بيت المقدس نهائياً عن سوريا دون أن يتركوا وراءهم سوى خرائب قلاعهم لتكون شاهداً على ما أشعلوه من حروب صليبية وعلى مملكة شيدّوها ثم أضاعوها [١].

وكانت هذه الانتصارات المملوكية سبباً في أن يكتب إمبراطور الروم ميخائيل الثامن رسالة إلى السلطان قلاوون يعرض فيها مودّته، ويظهر استعداده لتسهيل السفر لرسله الذين يمرون ببلده. وكذلك فعل ولده اندرونيكوس الثاني الذي أرسل إلى المنصور قلاوون هدية هي حمل من الحرير الأطلسي وأربعة أحمال من البسط. انتهى.

ج ـ علاقة السلطان قلاوون بالحبشة

حرصت الحبشة دائماً على إقامة علاقات من الصداقة والمودّة مع أصحاب السلطة في مصر إبقاء على ما بين الدولتين من روابط تجارية وثقافية ودينية، فقد كانت تتبادل

---

(١) باركر: الحروب الصليبية ص ١٣٢.

مع مصر تجارة قوية نشطة، كما كانت الحبشة بحاجة الى ما تمدها به مصر من كتب دينية تحرص الحبشة على ترجمتها من العربية والقبطية إلى اللغة الحبشية، من أجل المحافظة على العقيدة المسيحية التي يشترك فيها الشعبان. كما كانت الحبشة تحرص باستمرار على أن يكون رئيس كنيستها مطراناً يرسله بطريرك الاسكندرية إليهم، وكان غيابه يعرض الكثير من الشؤون الدينية والاجتماعية لخطر الانهيار. وكانت هذه الصلة قد انقطعت منذ أن اضطرب حبل الأمن في الحبشة في النصف الأول من القرن الثالث عشر نتيجة لضعف ملوك لاستا. وقد حاول الامبراطور «يكونوا أملاك» الذي ارتقى عرش الحبشة في سنة ١٢٨٦ م أن يعيد هذه العلاقات إلى ما كانت عليه من القوة فارسل إلى مصر وفداً. إلّا أن هذا الوفد لم يبلغ مأمله، إذ لم يوافق بيبرس على تنصيب المطران المطلوب. فلم يجد الإمبراطور الحبشي بداً من اللجوء إلى بطريرك آخر هو بطريرك أنطاكية الذي أوفد إليه مطراناً سورياً. إلّا أن الشعب نقم على إمبراطوره فشله في إعادة العلاقات مع بطريرك مصر، وكادت الأمور تسير إلى الأسوء لولا أن مات الإمبراطور وجلس على العرش ابنه «يجبا صيون» فبادر إلى إرسال وفد جديد إلى مصر برئاسة شخص يدعى عبد الرحمن بن يوسف وحمّله كتباً إلى البطريرك يؤنس الثامن يعتذر فيه من هفوة أبيه ويطلب تعيين مطران

مصري جديد، وإلى السلطان قلاوون ذكر فيه أنه يختلف كثيراً عن والده فهو ينشر حمايته على المسلمين في مملكته، ويرجوه أن يُعامل مسيحيو مصر المعاملة السمحة كي تقوم بين المملكتين صداقة وطيدة دائمة.

د ـ علاقة المنصور قلاوون مع أرمينيا الصغرى:

وقد سميت بأرمينيا الصغرى للتمييز بينها وبين أرمينيا الكبرى القديمة التي تقع في المنطقة الجبلية الممتدة جنوب القوقاز والبحر الأسود، أي بين بلاد فارس والعراق شرقاً وبلاد الروم غرباً. وقد درّ عليها هذا الموقع أرباحاً طائلة نتيجة لمرور طرق التجارة بين الشرق والغرب في أراضيها. غير أن هذا الطريق لم يلبث أن تحوّل نحو الجنوب في القرن العاشر الميلادي وصار يمر بحلب وأنطاكية، ممّا افقد أرمينية أهميتها الاقتصادية. فأخذت تضعف تدريجياً إلى أن استولت عليها الأمبراطورية البيزنطية في القرن الحادي عشر الميلادي. ولم يستسلم بعض لأزمن لهذا الواقع بل غادروا بلادهم، وانتقلوا جنوباً مع انتقال طرق التجارة من ناحية، وتحت ضغط الهجرات السلجوقية والمغولية من ناحية ثانية. واستقروا في جنوب الأناضول وقليقية، أي في المنطقة الممتدة من الرها شرقاً إلى أضنة غرباً. وهناك في جنوب آسيا الصغرى أسسوا مملكة أرمينية الصغرى المعروفة زمن الحروب الصليبية

والمماليك. وقد اتخذوا مدينة سيس عاصمة لهم [1]. وقد لعبت هذه المملكة دوراً خطيراً ضد دولة المماليك في مصر والشام، فلم تكتفِ بمساعدة الإمارات الصليبية في الشام بل تحالفت مع مغول فارس وأخذت تحرض هولاكو وابنه أباغا على غزو الشام ومصر، هذا إلى جانب الحصار الاقتصادي الذي فرضته على المماليك بمنعها تصدير الخشب من آسيا الصغرى إلى مصر [2]. هذا الواقع اضطر بيبرس على انتهاج سياسة العنف والقسوة تجاه أرمينية الصغرى فأرسل حملة تأديبية سنة ١٢٦٦ م على رأسها الملك المنصور الثاني محمد صاحب حماة، أغارت على مدنها الرئيسية كسيس وأذنة وطرسوس والمصيصة حيث عاثت فيها تخريباً مدة عشرين يوماً، ثم آبت بغنائم كثيرة وأسرى عديدين؛ من بينهم ابن هيثوم الأول ملك أرمينية[3]، الأمر الذي أجبر هيثوم، ضماناً لإطلاق سراح ولده، على أن يتنازل للماليك عن عدة مواقع استراتيجية هامة تتحكم في طرق المواصلات التي تربط أرمينية بحلفائها المغول في الجزيرة، شمالي العراق من ناحية، وبالصليبيين في أنطاكية من ناحية أخرى.

---

(١) ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية ص ٣٣٤.

(٢) سعيدعاشور: الحركة الصليبية ١١٤٧/٢.

(٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣٤٣/٢ ـ ٣٤٤.

كذلك تعهد بدفع جزية سنوية لسلطان مصر والشام المملوكي مقابل مسالمته.

وفي سلطنة المنصور قلاوون شارك أهل أرمينية الصغرى المغول في تخريب حلب، ممّا حمله على تجريد حملة عسكرية وصلت إلى أبواب الاسكندرونة وذلك سنة ٦٨٢ هـ، وعادت هذه الحملة محمّلة بالغنائم [١]. وظلت أرمينية بعد ذلك محدودة القوى، ضعيفة التأثير في مجرى أحداث المنطقة إلى أن قامت بحركة عصيان أخرى في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وانتهت بخضوعها واعترافها بسيادة سلطان مصر والشام مجدداً [٢].

هـ ـ علاقة المنصور قلاوون بالنوبة

كانت النوبة مملكة مسيحيّة في أعالي النيل تدين بالطاعة لسلطان مصر وتؤدي له الجزية السنوية المعروفة بالبقط [٣]، منذ الاتفاقية التي عقدها معها عبد الله بن سعد بن أبي

---

(١) ابن عبد الظاهر: السيرة ص ٣٠ ـ ٣١.

(٢) المقريزي: السلوك ٥٥٢/١. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١١٤٨/٢.

(٣) كلمة بقط مأخوذة أما من المصرية القديمة باق Bak بمعنى عبد، أو الكلمة اللاتينية Pactum ومعناها عقد أو اتفاق، أو أنها عربية الأصل بمعنى قطعة أو فرقة أنظر سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام ١٥.

سرح عام ٦٥٠ م. غير أن هذه التبعية كانت أسمية في غالب الأحيان.

وعند قيام دولة المماليك انتهز ملك النوبة داوود انشغال الظاهر بيبرس بحروبه ضد المغول والصليبيين ومملكة أرمينية، فهاجم أسوان سنة ١٢٧٢ م، كما هاجم ميناء عيذاب لتهديد التجارة المملوكية في البحر الأحمر وقطع طريق الحج في هذه المنطقة [١]. وقد ردّ بيبرس على ذلك بارسال حملتين متتاليتين إلى بلاد النوبة في سنتي ١٢٧٣ م و١٢٧٥ م بقيادة الأميرين آقسنقر الفارقاني وعز الدين الأفرم، فهزم الأفرم الملك داوود وأسره وأقام عمه شكنده مكانه بعد أن تعهد بدفع الجزية في كل عام. وقد أنشأ بيبرس عقب هذه الانتصارات ديواناً خاصاً للنوبة في القاهرة تحت إشراف الوزير بهاء الدين بن حنّا لمراقبة وصول الجزية من النوبة بانتظام [٢].

لكن شكنده لم يلبث أن قتل وأُجلس سمعان على العرش مكانه، فإذا ما ارتقى السلطان قلاوون العرش اتجهت إليه الوساطات كما اتجهت إلى أسلافه من قبل، فأرسل

---

(١) سعيد عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٧٨.

(٢) المقريزي: السلوك ١/٦٢١ ـ ٦٢٢. مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٤٨.

حملة سنة ١٢٨٧ م قابلها الملك سمعان بالارتداد نحو الجنوب. ولكن الجيش المملوكي لحق بجزء من الجيش المنسحب عند دنقلة وأوقع به الهزيمة. وأقيم ابن أخت سمعان ملكاً مكان خاله، كما وأبقي معه فريق من الجند لحمايته وقُرِّرت عليه جزية يؤديها لسلطان مصر.

ولكن سمعان لم يلبث أن عاد على رأس جيش كبير وأوقع الهزيمة بالحامية المملوكية واستعاد عرشه. فلمّا علم السلطان المنصور قلاوون بذلك جهز في سنة ٦٨٨ هـ/١٢٨٩ م حملة جديدة بقيادة عز الدين الأفرم، فتقدمت بعد أن انضم إليها بنو كنز القاطنون جنوب أسوان. وعندما وصلت الحملة إلى دنقلة وجدت الملك سمعان قد تقهقر نحو الجنوب. وقد اكتفى الجيش المملوكي بهذه النتيجة وأقام على العرش أميراً نوبياً جديداً قبل أن يحكم في ظل النفوذ المملوكي.

ولم يمضِ على رحيل الجيش المملوكي زمن حتى عاد سمعان زاحفاً من جديد واسترد عرشه دون عناء بعد ان قتل الملك الجديد وقضى على الحامية المملوكية التي كانت تسنده وفي الوقت نفسه كتب إلى السلطان قلاوون عارضاً صداقته. وكانت الأحوال في مصر قد اضطربت فلم يلتفت السلطان إلى هذه البلاد ورضي من الملك سمعان بما طلبه

وعقدت بين الطرفين معاهدة بذلك، تعهّد فيها الملك سمعان أن يدفع للسلطان قلاوون نصف إيراد دولتـه وأن لا يقدم بـأية جهود حربية يكون هدفها تهديد الحدود المصرية[1] .

هـ ـ علاقة السلطان قلاوون بالحجاز

لمـا كان الحجـاز هو المـوطن الأول لـلإسـلام ومقصـد المسلمين في الحج والزيارة. وقد حرص الخلفاء العبـاسيون دائمـاً على أن يكون هـذا الجزء الهـام من العالم الإسـلامي تحت يدهم. إلاّ أن ضعف الخلافة العباسية بعد أيام المأمون أضعف هذه العلاقة، فإذا ما قامت الخلافة الفاطمية في مصر حـرصت على أن يدخـل الحجاز في حـوزتهـا كي تكـون بـه جديرة بمنافسة الخـلافة العبـاسية في بغـداد. ولم تلبث مصر أن صارت منذ أيـام الدولـة الأيوبيـة قلب العالم الإسـلامي، وقد قام سلاطين هذه الدولة بعبء الدفاع عنـه. وعندمـا قامت دولـة المماليـك حرص الـظاهر بيبـرس على إحياء الخـلافـة العباسية وعلى أن تكون القاهرة مركزها، كذلك حـرص على إبقاء الحجاز تحت حكمـه ومدّه بـالمال رفعـاً لمكانـة مصر. وهكـذا ثبُتَ سلطة المماليـك في بـلاد الحجـاز، فـأصبح

---

(١) أورد ابن عبد الظاهر بعضاً من الأخبـار عن العلاقـات بين النـوبة ومصر في عصر قلاوون.

ـ ابن عبد الظاهر: السيرة ١٥٤ ـ ١٥٥.

الخطباء يدعون له على منابر تلك البلاد وتُضرب السكة فيه باسمه، كما حرص أمراء مكة والمدينة على إظهار ولائهم لسلطان مصر. وقد حلف الشريف أبو نُميّ أمير مكة سنة ٦٨١ هـ[1] للسلطان المنصور سيف الدين قلاوون على أن يكون مطيعاً له، وأن يلتزم تعليق الكسوة المرسلة من مصر على الكعبة في كل عام وأن لا تعلق كسوة غيرها وأن يقدّم علم المنصور على كل علم، لقاء أن يسهل أمير مكة زيارة البيت الحرام لكل قاصد ويؤمن مواسم الحج والزيارة، ويعمل على القضاء على قطّاع الطرق.

وكثيراً ما تدخّل سلاطين المماليك لفض كل نزاع بين الأمراء الحجازيين، إبقاء على الصلات الحسنة مع الحجاز، وكذلك إبقاء على الأمن من أن يضطرب في هذه البلاد المقدسّة.

و ـ علاقة المنصور قلاوون باليمن

حرص سلاطين مصر على إبقاء سلطتهم على اليمن كاملة منذ أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي استولى عليها عام ٥٩٦ هـ، وأقام فيها الخطبة لبني العباس. إلاّ أن

(١) هو الأمير نجم الدين أبو نُميّ أمير مكة محمد بن أبي سعد (٦٥٢ ـ ٧٠١ هـ، وعن هذه العلاقات أنظر ابن عبد الظاهر: سيرة قلاوون ص ١٨ ـ ١٩.

انصراف الأيوبيين إلى مقاومة الصليبيين أتاح لبني رسول فرصة الاستقلال باليمن وتوارثوا الملك فيه، ولكن قوة السلطان الظاهر بيبرس أعادت إلى مصر مكانتها أيضاً إلى جانب البلاد الأخرى. فكان صاحب اليمن لا يتصرف في أمر من الأمور دون أن يكتب إلى الظاهر بيبرس. وقد أرسل إمبراطور الحبشة «يكونوا ملاك» وفداً إلى مصر أيام الظاهر بيبرس، فاحتجزه صاحب اليمن عنده حتى يكتب إلى مصر في شأنه، كما حرص الملك المظفّر شمس الدين يوسف على الإبقاء على علاقات الودّ، فكان يرسل إليه الهدايا السنوية تحملها سفارة كبيرة، وكانت هذه الهدايا تحوي السيوف والخيول المطّهمة علاوة على بعض الحيوانات الغريبة مثل الفيلة والزرافة وحمار الوحش، فكان الظاهر يقابلها بالترحاب ويبادل صاحبها بهدايا مماثلة.

وعندما وصلت اليمن أخبار تولي السلطان المنصور سيف الدين قلاوون أرسل له الملك المظفر[1] أيضاً هدية

---

(١) هو الملك المظفر شمس الدين أبو المحاسن يوسف بن السلطان الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول التركماني الأصل الغساني صاحب بلاد اليمن، وقيل إسم رسول محمد بن هارون بن أبي الفتح بن نوحي بن رستم من ذرية جبلة بن الأيهم. وقيل أن رسولاً جد هؤلاء ملوك اليمن كان انضم إلى

من العـود والعنبـر والـرمـاح والسيـوف يحملهـا أخـوه الأميـر مجد الدين، وطلب من السلطان المصري أماناً مكتوبـاً على قميص، فكتب الأمان وأرسل إليه.

ولم يكتف الملك المظفر بذلك، بل أرسل هدية أخـرى في سنـة ٦٨٤ هـ، وكـانت جملة من الخصيان والأفـراس والفيلة والببغاء والرماح والبهار والقمـاش والأطباق. وقـد قبل السلطان الهـديـة وأنعم على صـاحب اليمن ورسله بـالخلع والعطايا.

علاقة المنصور قلاوون بالمغرب

حرصت البيوت المالكة المتعددَة التي قامت في المغرب على أن توطد علاقاتها بالعـالم الإسلامي، فقـد كان الجهـاد بينهـا وبين ملوك الفرنجة في الأندلس متصـلاً. وكان هجـوم ملوك أسبـانيا على أمـلاك المسلمين دائمـاً. ولم يتـردّد ملوك المرابطين ثم الموحدّين في نصرة السلاطين المسلمين.

وحرص سلاطين المغرب على توطيد علاقاتهم بالشرق،

- بعض الخلفـاء العباسيـين، واختصه بـالرسـالة إلى الشـام وغـيرهـا فعرف برسول وغلب عليه ذلك.
- ابن عبـد الظاهـر: سيرة قـلاوون ١١٧ ـ ١١٨ـ ١٤٤. ابن تغـري بردي: النجوم ٨/٧١ وما بعدها.

لا سيما وأن مصر كانت طريق حجهّم، وكانت لسلاطين مصر منذ الدولة الأيوبية السلطة على بلاد الحجاز، فكان سلاطين المغرب يداومون الكتابة إلى سلاطين مصر يطلبون الأذن بحج بعض رجالهم وخاصة نساء دولتهم من أمهات السلاطين وزوجاتهم. ولم يكن سلاطين مصر يترددون في منحهم الأمان والحرية خلال رحلتهم الطويلة، فكانوا دائماً يستقبلون موكب حجّاجهم ويحافظون عليه سواء داخل الحدود المصرية أو في بلاد الحجاز. وقد حفظ لنا ديوان الإنشاء كثيراً من الرسائل التي تبادلها ملوك المغرب مع سلاطين المماليك ومنهم السلطان المنصور قلاوون من أجل إقامة صداقة دائمة. وكانت هذه الرسائل مقرونة دائماً بكثير من الهدايا التي يقابلها سلاطين المماليك بهديا مماثلة[1] .

و ـ علاقة السلطان قلاوون بملوك أوروبا

تبادلت مصر الرسائل والهدايا مع الممالك المسيحية في أسبانيا، فقد أرسل الملك الفونس صاحب قشتالة في سنة ٦٨١ هـ/١٢٨١ م رسولين إلى السلطان المنصور قلاوون ومعهما هدية من الخيل والبغال فأحسن السلطان ضيافتهما

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور ١٧٤ ـ ١٧٥.

وأجزل لهما العطايا. ولم تقتصر العلاقة بين الفونس وقلاوون على تبادل الرسل والهدايا، بل أبرمت بين الإثنين معاهدة دفاعية في سنة ٦٨١ هـ [١].

وكانت امارة أراغون أيضاً من بين الامارات المسيحية التي ارتبطت مع مصر بعلاقات المودة والصداقة. فعقد ملكها وأخوه ملك صقلية معاهدة سنة ٦٨٩ هـ تعهدا فيها بمساعدة السلطان قلاوون ضد أية حرب يشنّها عليه المسيحيون [٢].

وحرص جيمس الثاني ملك أراغون على إقامة صداقة متينة مع السلطان المنصور من أجل رعاية شؤون المسيحيين في الشرق وتنمية موارد بلاده بفتح أسواق تجارية لها في مصر. ويحفظ لنا أيضاً ديوان الرسائل كثيراً من الكتب التي تبادلها سلاطين المماليك مع أمراء أسبانيا المسيحيين، وكانوا يلقّبون ملك أراغون باسم ريدارغون.

وكان حرص سلاطين مصر على تنشيط تجارة مصر باعثاً لهم على الترحيب بالتجار الإيطاليين في الموانىء المصرية، فقد كانوا حملة التجارة الشرقية إلى أوروبا، يحملونها إلى

---

(١) المصدر نفسه ص ٢.

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٦ ـ ١٦٤.

جمهـورياتهم ومنهـا تـوزع إلى أوروبـا عن طـريق الممـرات الكثيـرة التي تخترق جبـال الألب. وقد عقـد الظاهـر بيبـرس معـاهدات تجـارية عـديدة مـع جنوه، ومنـح البنـادقـة عـدة امتيـازات سهّلت عليهم سبـل المتـاجـرة، فكـانت لهم في الاسكندرية خاناتهم التي تخزن فيها تجـارتهم، بل كـان لهم حرّاسهم وقناصلهم، بل حرص سلاطين المماليـك على منح تجارّهم حق التقاضي أمام قناصلهم وفقاً لقوانينهم الخاصة.

وكذلك عقد المنصور سيف الدين عدة اتفاقات تجـارية مـع البندقيـة وجنوه وبيـزا [1] ، فأصبـح لهـذه الجمهـوريـات قناصل في الاسكندرية ودمياط ورشيد، مسؤولين عن سـلامة مـواطنيهم وعن تنفيـذهم لقـوانين التجـارة. فكـان التجـار الأجـانب الـذين يفـدون إلى مصـر يسجّلون أسمـاءهم في مكـاتب قنصلياتهم من أجـل سهولـة تمتعهم بما نصّت عليـه المعاهدات المعقودة من امتيازات.

وكـانت هـذه المعـاهـدات بين الملوك المسيحيين والمسلمين سببـاً في إثارة غضب البـابـا على الجمهـوريـات المسيحيـة، فكـان يثيـرهـم من وقت إلى آخـر في سبيـل نقض هذه المعاهدات والانضمام إلى صف العالم المسيحي في جهاده ضد المسلمين، فكانت الجمهوريات الإيطالية تنضم إليـه في

---

(١) المصدر نفسه ١٦٥ ـ ١٦٩.

بعض الأوقات وتحارب في صفّة. إلاّ منافعها الاقتصادية لا تلبث أن تدفعها إلى العودة إلى صداقة سلاطين مصر حيث كانت أسواق القاهرة والاسكندرية تزخر بمواد التجارة القادمة من الهند.

ولكن هذه الصداقة مع جمهوريات إيطالية لم تكن تمنع سلاطين المماليك من إخفاء مصادر التجارة الهندية عنهم. ووصلت هذه الرغبة في الاخفاء إلى حدّ تحريم تجولهم في داخل البلاد المصرية كي لا يصلوا إلى شاطىء البحر الأحمر حيث كانت ترسو مراكب التجار المسلمين حاملة للتجارة الهندية، وكان الدافع على هذا الحرص رغبة سلاطين المماليك في جني أكبر ما يمكنهم من رسوم المرور التي كانوا يجبونها من هذه التجارة. وقد وصلت هذه الضريبة التي كانت تجبى من التجار المسيحيين إلى خمس بضائعهم، وكان يشرف علي جبايتها ديوان خاص يسمى ديوان الخمس، بل ربما زادت هذه الضريبة عن هذا المقدار.

ومن أجل ذلك حرص السلطان المنصور قلاوون على أن يحمل التجار الأجانب جوازات يبرزونها إلى السلطات المصرية كلما دخلوا منطقة من المناطق. وكانت هذه الجوازات بمثابة أمر إلى السلطات المصرية بتسهيل سفر هؤلاء التجار وتأمينهم.

وكذلك عقدت معاهدات الصداقة بينه وبين فيليب الرابع ملك فـرنسـا وجيمس ملك صقليـة. والامبـراطـور رودلف إمبـراطور النمسـا. فقد كـان الملك فيليب الرابـع يـرمي إلى غرضين ظاهـرين، أولهما القضـاء على سلطة الإشـراف في بـلاده ليجعل من الحكـومة المـركزيـة قوة كبيـرة يكـون على رأسهـا، وثـانيهمـا إبعاد كـل أثـر لنفـوذ أجنبي في إيـطاليـا ليستخلصها لنفسه، فعمل على إبعاد سلطة البابا، ولم يتـورع عن محاربة الباب بونيفـاس الثامن، وكـان عداؤه للبـابا يحتم عليـه أن ينضم إلى أعـدائـه، ولو كان هؤلاء الأعـداء من المسلمين.

٤ ـ منهجه وأسلوبه

بالرغم من وفرة المصادر في العصر المملوكي، ورواج سوق التدوين التاريخي، فقد تميزت بعض المؤلفات بالأصالة والتفرد بالمعلومات، مما جعلها دون غيرها أشبه بالمصادر الأمهات التي لا يستغني عنها مؤلف بعدها، والتي تغذي، دون كبير استثناء المؤلفات التالية لها، بل والتي تعاصرها أيضاً، فلم تكن المعاصرة مانعاً من الاقتباس وأحياناً من المؤلفات الجيدة. وهكذا نجد ابن عبد الظاهر في سيرته للسلاطين الذين عمل لديهم وهم الملك الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والملك الأشرف خليل، مصدراً لكل من أرّخ لهؤلاء السلاطين من بعده، من مثل سبط ابن عبد الظاهر وابن الفرات والمقريزي.

بالنسبة لمصادر ابن عبد الظاهر، نرى أنه، شأن كثير من مؤرخي هذا العصر، لم يأتِ بجديد في هذا الباب، فاكتفى بالاطلاع الشخصي المباشر والشهادة العيانية في كل ما سجل من أمور عصره. فليس لديه إلاّ الخبر العادي المرتبط بتاريخه اليومي المتسلسل فلا أخبار المعارك تستند إلى رواية ولا تراجم العلماء، ولا أخبار العامة.

وهكذا فكتاب ابن عبد الظاهر «تشريف الأيام والعصور» على سبيل المثال، يحفل بالوثائق الرسمية التي شاع

استخدامها وإدخالها في كتب التاريخ منذ اشتهرت رسائل القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، ودخلت الأدب التاريخي فاتحة في القرنين السادس والسابع الهجريين. واندفع مؤرخو العصر المملوكي الأول في اتباع هذه السنة مدة تزيد على القرن، قبل أن يعدلوا تدريجياً عنها، ثم يهملوها. وعلى هذا أثقلت الكتب التاريخية الأولى لهذا العصر بصفحات طويلة جداً أحياناً من نصوص الوثائق المتعددة الأغراض والأنواع، فمنها تقليد بالقضاء، ومنها وثائق هدنة أو صلح، ومنها نسخة يمين، ومنها توقيع سلطاني، ومنها بشارة ببعض الفتوح، ومنها كتب متبادلة بين الملوك، ومنها وصية بعض المتنفذين، ومنها مناشير سلطانية، أو عهود، أو أمان. .

وكان أكثر المؤرخين استخداماً لها، وإيراداً لنصوصها هم أولئك الذين كانت تسمح لهم وظائفهم الرسمية، كابن عبد الظاهر، بأن يكونوا على اتصال بمحفوظات الدولة ومراسلاتها الرسمية، وهم كتّاب الدواوين بخاصة، ويليهم كبار الأمراء والعلماء. وكلما كان المؤرخ أقرب إلى الديوان وأهله كان استخدامه المحفوظات أكثر.

ولم يكن إيراد الوثائق بنصوصها ناجماً في معظم الأحيان عن الرغبة بالتوثيق التاريخي بقدر ما كان ناجماً عن الرغبة

في تـزيين الكتب بنصـوص أدبيـة ذات طـابـع فني يمكن أن تكون مثالاً يحتذى للناشئين والكتاب. وبعض المؤلفين كانوا على طريقة العماد والقاضي الفاضل، إنما يثبتونهـا تباهيـاً بما كتبـوا، لا سيمـا وأنهـا تكـون من إنشـائهم، كمـا فعـل ابن عبـد الظاهـر في تشريف الأيـام والعصور، وأيـاً كان الـدافع لجمعها وتسجيلها فقد أفاد إثباتها مع الأحداث التـاريخية في عملية التوثيق التاريخي من جهة، وفي الكشف عن تفصيلات بالغة الشأن في الإدارة والعمل القضائي والأنظمة المالية وفي التعامل الدبلوماسي الوسيط، من جهة أخرى.

وإذا نحن تـركنـا جـانبـاً الكتب التي جمعت الـوثـائق لا لغـرض التـاريـخ، ولكن لتعليم الكتـاب، كصبـح الأعشى للقلقشندي، والتعريف بـالمصطلح الشـريف لابن فضل الله العمـري. والتقينا بمـا استهدف التـاريخ، وجدنـا أن كتـاب «تشـريف الأيام والعصـور» لابن عبـد الـظاهـر يكـاد يكـون سلسلة متصلة من الـوثائق التي أنشـأها المؤلف نفسـه بحكم عمله في رئاسة ديوان الإنشاء، والتي تسجل أحداث عصره، والأعمـال والقرارات اليـومية لسلطانـه مـع الأحـداث الهـامـة للحكـومة، دون أن تغـرق في ركام اللفظ والصنـاعـة والبيـان اللغـوي. ولمـا كـان كـاتب السـر وعمله أن ينشيء الكتب الـرسمية الصـادرة، ويحفظ الواردة، وأن يقـوم على تسجيـل الأعمال والقرارات اليومية، فإن تبييض هذه الأعمال في نسق

متصل مع بعض المقتطفات الأدبية والشعر والافكار والتأملات هي التي شكلت مؤلفات ابن عبد الظاهر، والسير المتتالية التي كتبها، بالإضافة إلى مؤلفاته الأخرى الأدبية والديوانية وجلّها مفقود. وهكذا نجد لديه مثلاً.

ـ نصوص الهدنة بين السلطان قلاوون ومقدم الفرنجه الديوية في عكا سنة ٦٨١ هـ [١] .

ـ وثائق الهدنة مع فرنجة عكا في ثماني صفحات سنة ٦٨٢ هـ [٢] .

ـ نسخة الصلح مع صاحب سيس والأرمن في عشر صفحات سنة ٦٨٤ هـ [٣] .

ـ الهدنة مع الفرنجة في صور سنة ٦٨٤ هـ، والهدنة مع صقلية، ثم مع جنوه [٤] .

ـ نسخة الإيمان التي حلفها السلطان قلاوون وابنه وملك صقلية بعضهم لبعض، والتي حلفها الجنوية أيضاً [٥] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٩٣ ـ ١٠٣.

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٣ ـ ١١٠.

(٥) المصدر نفسه ص ١٥٧ ـ ١٦٦.

- كتاب من ملك الحبشة إلى قلاوون، وهو معّرب عن الحبشية[1] .

- نسخة بشارة بفتح صافيتا أرسلت إلى صاحب اليمن[2] .

- نسخة تقليد الأمير فخر الدين على العربان بالشام[3] .

- نسخة كتاب أرسل من قبل قلاوون مع رسله إلى الملك منكو دمر[4] .

- نسخة تذكرة كتب بها عن السلطان إلى نائب قلعة صرخد، وهي تعليمات سلطانية[5] .

وما تبقى من كتاب «تشريف الأيام والعصور» سجل لما قام به المنصور قلاوون في سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨١ م إلى سنة ٦٨٦ هـ/١٢٨٧ م، تطرق فيه إلى صفات وسجايا قلاوون، كما يشمل كذلك الكتب والرسائل التي أرسلها أو تلقاها من سائر الملوك والسلاطين كما أنه تبيان للعلاقات التي كانت

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦٢ - ١٦٤ و١٦٧ - ١٦٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٢ - ١٧٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٨٦ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٩٠ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٩٣ .

قائمة بين مصر وغيرها من البلاد في هذه الفترة. ولما كانْ المؤلف أديباً واسع الثقافة والأفق، وكاتباً بليغاً صادق الحس، فقد استطاع في سرده للأحداث التاريخية، ووصفه للمعارك الحربية، أن يربط بينها وبين المسرح الجغرافي لهذه الأحداث، ربطاً امتاز بالدقة، وتجلت فيه مقدرته على إبراز الصورة الواضحة التي تكاد تنبض بالحياة، وتبيّن مواطن الضعف والقوة فيها، ومشاعر المحاربين. كما نجح نجاحاً كبيراً في وصف البقاع والبلدان والمنشآت التي تناولها، والحالة الاجتماعية التي عليها سكان البلاد.

وترجع أهمية الكتاب إلى أنه حديث من شاهد الأحداث بنفسه أو وقف عليها أثناء عمله بديوان الإنشاء، أو سمع عنها فتحرى الدقة والتثبت ممّا سمع.

وقد اتبع ابن عبد الظاهر في إيراد الأخبار النظام الحولي الذي كان سائداً في عصره، ولم يتعرض لترجمة الاعلام سواء كانوا علماء أو أرباب سيوف أو حكاماً إلاّ في النادر القليل. ونحن نرى المؤلف أنه يفتتح عنواناً كبيراً لمجموع الحوادث المتسلسلة، ويدرج فيها عناوين الوقائع المتعلّقة ويثبت بعد أن هذا كثيراً من الوثائق الرسمية التي تلخص بعض الوقائع والجو السياسي وقد اختار ابن عبد الظاهر الأسلوب الأدبي للكتاب ليكون روضاً يعيش فيه

الأديب، ويطوف أرجاءه ويمشي في جنباته، يقطف من أزاهيره اليافعة وينهل من غدرانه، كما يجد فيه المؤرخ ضالته. وقد التزم في هذا الكتاب أسلوب الكتاب المنشئين في تآليفهم التاريخية من ناحية قيامها على الزخرف والتنميق. هذه العناية بدأت مع كتاب العصر العباسي وأخذت تزداد شيئاً فشيئاً على مر الزمن، حتى برز مذهب أدبي أطلق عليه مذهب التصنيع. وهو مذهب كان يعتمد على السجع من ناحية والبديع من ناحية أخرى. وكان أستاذ هذا المذهب ابن العميد [1]، فهو الذي وسّع لأول مرة طاقة الزخرف في تعبير النثر وتحبيره. ثم أخذ هذا المذهب يتطور حتى أصبحت كتابة الكتاب زركشة من تطريز بالسجع وترصيع بالبديع. وقد اصطبغت أعمال الكتاب والأدباء بهذه الصبغة ولم يسلم منها حتى كتّاب التاريخ أنفسهم، إذ ظهر منهم من

---

(١) هو ابن الفضل محمد ابن العميد أبي عبدالله الحسيني بن محمد الكاتب المعروف بابن العميد، والعميد لقب والده، لقبوه بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم. وكان فيه فضل وأدب وله ترسل. كان وزيراً لركن الدولة البويهي. سُمي بالجاحظ الثاني. وقال الثعالبي في يتيمة الدهر: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد. فيه وفي الصاحب بن عباد وضع أبو حيان التوحيدي كتابه «مثالب الوزيرين».
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٠٣/٥ ـ ١١٢

اختـار هذا الأسلوب لنفسـه، فطرز ما ساقه من أخبار بهـذا الأسلوب. ولم يلتـزم الكتّاب هـذا المذهب التـزاماً تـاماً بـل أخذت تظهر على أساليبهم بوادر مذهب التصنع. وهو مذهب يقوم على تصعيب طرق الأداء وتعقيـدها ضـروباً مختلفـة من التعقيـد. ويعتبـر أبـو العـلاء المعـري أبـرز من حقق لهـذا المذهب كل ما يمكن من صور التصعيب، ثم تبعه الكتاب.
ومنذ القرن السادس نجد أن الكتاب في الأقاليم المختلفة قد غمـرهم ذوق التصنّع في الكثيـر الأكثـر، وقلّمـا تـركـوا هـذا الذوق إلى ذوق التصنيع. وعلى هـذا التزم ابن عبـد الظاهـر في كتبه اللغة الفنية، ملتزماً السجع في أكثر الأحيـان ومعتمداً الإكثار من استعمال المحسنـات البديعيـة واللفظيـة إلى درجة كبيـرة، نـاهجـاً نهـج أصحـاب مـذهب التصنّـع. وكـان ابن عبـد الظاهـر كغيره من أدبـاء عصره يعيش في الإطـار الفني العام له من استعمال للمحسنّات البديعية واللفـظية من تنـظير وتشخيص وتورية وجناس وتضمين، ومراعـاة النظيـر والطبـاق والجناس المقلوب، كما عُنيَ بالتشخيص والتصوير.

أورد القلقشنـدي شـواهـد كثيـرة جـداً من فنـون ابن عبـد الـظاهـر النثريـة، وقـد اعتمـد عليهـا في التمثيـل والاستشهاد، نذكر منها رسالته التي أنشأها حين فتـح الملك الـظاهر بيبـرس قيساريـة في بلاد الـروم، وهذه الـرسالـة من

«رسائل الغزو، وهي أعظمها وأجلّها»[1] . وقد تحدث منشئها عن دقائق الحرب يوماً بعد يوم لأنه كان يصحب سلطانه، وبعث بها إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا وزير السلطان الملك الظاهر، وهي في ست وعشرين صفحة اشتملت على شواهد شعرية تناسب المقام. ومنها كتاب كتب به عن الملك قطز إلى المنصور صاحب اليمن بهزيمة التتار وقد جاء فيه قوله[2] .

«أعزّ الله تعالى نصرة المقام العالي، المولوي السلطاني، الملكي، المظفري، الشمسي، وأشركه في كل بشرى تُشدُّ الرحال لاستماعها، وتحلّ الحبى لاستطلاعها، وتتهافت التواريخ والسِّيَر على استرفاعها، وتتنافس الأقلام والسيوف على الانهام بأجناسها وأنواعها، ولا خلا موقف جهاد من اسمه، ولا مصرف أجر من قَسْمه، ولا غرض هناء من سهمه، ولا أفق ابتهاج من بزوغ شمسه وطلوع نجمه، سطر المملوك هذه البشرى والسيف والقلم يسمدان: هذا من دم، وهذا من نفْس، ويمضيان: هذا في رأس وهذا في طِرْس، ويتجاوبان: هذا بالصليل وهذا بالصرير، ويتناوبان: هذا يستحيل وهذا يستمير، وكل منهما ينافس الآخر على

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/١٣٩ - ١٦٥.
(٢) القلقشندي: نفس المصدر ٧/٣٦٠ - ٣٦٢.

المشافهة بخبر هذا الفتح الذي ما سمت إليه همم الملوك الأوائل، ولا وُشِّمتْ به سيرهم التي بدت أحيادها من حلاه عواطل، ولا دار في خَلَد أن مثله يتهيأ في المُدَد الطويلة، ولا تشكل في ذهن أنه سيُدرك بحول ولا حيلة، وهو النصر المرتب على حركتنا التي طوى الله لركابنا على البلاد الفرنجية: وهي طرابلس وصافيتا وأنطرسوس ومرقيّه المرقب كما يهجم الغيث، وصادمنا صدورها كما يصدم الليث، وسلوكنا منها حيث لم يبق حيث، وما جرى في هذه الوجهة من إغارات أحسنت منقلبا الأعنّه، ومتعلّق السيوف، ومخترق الأسنّة، وما تهيأ منها من فتوح صافيتا التي هي أم البلاد ومنتجع الحاضر والباد، وكونُها قدّمت نفسها في جملة ما يُقري به الضيف، وقالت هذا فتوح حضر على هذا الفتوح لهذا السيف، وتلّطفت في مسح أطراف الأمان، وطلبت شكراً ومنا شكران، وأحضرت اليانافس أهلها الوقت، وهدّت السيوف في أعناقهم فتشبّهت بها الأغلال، وانفت إيمان أهل الإيمان من مصافحتهم لأنهم أصحاب الشمال، فأطلقهم سيفنا وأملُه يمتدّ إلى من هو أعزّ منهم حالاً، وأكثر احتفالاً، وابرّ مالاً، وأهز سيوفاً قصاراً ورماحاً طوالاً، واستطاء منها شرار نار الحرب الموقدة إلى غير ها من القلاع، واستطال إلى سواها من الحصون الباع، فلا حصن إلاّ وافترّت ثنيته عن نصر مسهل، وفتح معجّل ومؤجل. . .».

من هــذا النص وغيـره نــلاحظ أن الفقـرات متــوازنــة متنـاظرة، حـرص فيها الكـاتب على التزام السّجـع واقتـرنت بـالآيات أو الشعـر أو الأمثال، كـا أنها تصـور من طرف آخـر الحياة السياسية والاجتماعية، بالاضـافة إلى وصف المـلاحم والأحداث بين المسلمين من طرف والفرنجة والتتار من طرف آخر.

ومـع هـذا فليس أسلوب الكتـاب كله على نمط واحـد، فإذا كان ابن عبد الظاهـر اعتمد على الأسلوب المسجـع في رسـائله، فإنـه في نثره الأخـر أطلق فيه لقلمـه العنـان بسبب احتوائه على وثائق مكتوبة بأقلام مختلفة، ومحـادثات جـارية بين رجال مختلفين، ولكن علينا أن لا نهمل نقطة مهمة وهي أن التوصيفات الواردة في الكتاب إن كانت تظهـر كأنهـا زوائد إلا أنها في حقيقة الأمر تعطي النص حيوية وجواً حماسياً.

الفصل الرابع

مقتطفات من كتابات ابن عبد الظاهر

وفي هذه السنة (٦٨٠ هـ/١٢٨١م) ذكر هلاك أبغا ورجوع الملك إلى تكدار المسمى أحمد (ابن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ص ٢ - ٦)

تواترت الأخبار بموت أبغا بن هلاون وذلك لما ناله عقيب كسرة مَنْكوتمَر من رعب وخوف، ولما شاهده من هول بقتل عساكره وأكابر المُغُل. وبينما هو في هذا الحال إذ بلغه أن خزائنه وخزائن أبيه كانت في بُرج من قلعة على البحر، وأن ذلك البرج خَسَف الله به، وغارت الأرض به في البحر بجميع مافيه، ولم يسلم إلاّ قطعة من البرج.

قيل: إن أبغا دخل إلى الحمام وخرج منها، فسمع أصوات جملة كبيرة من الغِربان وهي تنعق، فقال: هذه

تقول: أبغا مات، أبغا مات. وركب من الحمام، فإذا كلاب صيده كلها عوت في وجهه. فتشاءم بذلك: ومات أبغا في نصف ذي الحجة سنة ثمانين وستمائة في قرية من قرى همذان اسمها نايل، وقيل في بلد اسمها كرما شاهان من بلد همذان.

وسبب موته أنه لما عاد من جهة الرحبة تصيّد وساق وراء غزال، فنقنطر من الفرس، فنزل في خَرْكاة[1]. ودخلت السحرة عليه فقال: أي شيء هؤلاء اللابسون الأسود، فحُمل فمات كما ذكرنا، ودفن في قلعة تلا عند أبيه. ومات بعده بيومين أخوه أجاي[2].

ومات منكوتمر بن هلاون وهو متوجه من بلاد الجزيرة إلى الأُرْدو[3] في مكان يعرف بتل بوخنزير دون الحصكُونه وكفر زَمَارُ حمل تابوته إلى الجزيرة وذُكر أن سبب موت مُنكوتمَر ما ناله في المصاف من جراح مثخِنة، ورعباتت متكمنة. وما مات حتى أكل لسانه بأسنانه، وأتى على أكثر من نصفه.

---

(١) هي بالفارسية Khar-gah وهي الخيمة.

(٢) أجاي بن هلاون وهو أخو أبغا واسمه تراغاي.

(٣) الأردو Urdu: لفظ تركي معناه المعسكر أو جيش. المراد به معسكر سلطان الدولة المغولية.

وكفن في أربعة أثواب من النسيج، وجعل في تابوت وسُيّر إلى تلا، فدفن بها.

ولما مات ابْغا بن هُلاّون[1] وقع الاختلاف فيمن يقعد في التخت. فتعصب جماعة لأحمد بن هُلاّون، واسمه الحقيقي تَكُدار، واسم أمه قُتوخاتون، وهي نصرانية. واتفقوا على إقعاده في تخت الملك. وما هان على بعض المغل قعود أحمد لأنه ادّعى أنه مسلم. فحضر أخوه قُنْغرطاي، وقال لأُرغون بن هلاون: إن أبغا شَرَط في الياسة[2] أنه إذا مات ملك ما يقعد عوضه إلاّ الأكبر من أولاده. وقد رتّبنا أحمد، ومن خالف يموت. فأطاعوه، وسيروا الألجية[3] لإحضار الملوك ليكتبوا خطوطهم بالارتفاء بالملك أحمد.

ولما جرى ذلك تحدثوا فيما بينهم في أن قدرتهم قد ضعفت، ورجالهم قُتِلت، وأن المسلمين كلما راحوا، في

---

(1) ابغا هو آباقا خان (Abaga) أو آباقا ايلخان وهو ابن هولاكو بن تولوى بن جنكيز خان من ملوك التتر. تولى بعد وفاة أبيه هولاكو البلاد التي كانت بيده سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥ م توفي مسموماً في بغداد في المحرم سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) وله من العمر ٥٠ سنة.

(2) الياسة، كلمة مغولية بمعنى مرسوم ملكي أو أمر ملكي أو قانون أو مجموعة قوانين. والياسة هي قانون التتار فيه نظام حياتهم ومعاقد احكامهم.

(3) الإلجية هم السفر، وبالتركية Jlchi السفير.

قوة، وأنه لا حيلة في هذا الوقت أتم من إظهار الإسلام والتقرب إلى مراضي مولانا السلطان واكتفاء بأسه بذلك. وإشاعة هذا الأمر. فسيّر كتاباً إلى بغداد مضمونه:

بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وإنّا جلسنا على كرسي الملك، ونحن مسلمون. فيتلقون أهل بغداد هذه البشرى، ويُعتمدون في المدارس والوقوف وجميع وجوه البر، ما كان يُعتمد في أيام الخلفاء العباسيين. ويرجع كل ذي حق إلى حقه في أوقات المساجد والمدارس، ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية. وانتم يا أهل بغداد مسلمون. وسمعنا عن النبي (صلعم) أنه قال: لا تبرح هذه العصابة الإسلامية مستظهرة إلى يوم القيامة. وقد عرفنا أن هذا الخبر خبر صحيح، ورسول صحيح، ورب واحد أحد فرد صَمَد. فتطيّبون قلوبكم وتكتبون إلى البلاد جميعها. وشرع الملك أحمد في تجهيز رُسُل إلى أبواب مولانا السلطان. فسيّر قاضي القضاة قطب الدين محموداً الشيرازي قاضي سيواس، والأمير شمس الدين بن الصاحب[1] أحد خواص صاحب ماردين. ومعهم جماعة كبيرة من أتباع وأشياع وغلمان ومماليك وخواص وتجمّل

---

(١) هو شمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين التيتي المعروف بابن الصاحب وزير ماردين.

عـظيم. فوصلوا البيـرة. وكان ذلـك لما بلغ مـولانـا السلطان كتب إلى النواب بالاحتـراز عليهم، وإن أحداً من خلق الله لا يراهم ولا يجتمع بهم، ولا يتحـدث معهم بكلمة، ولا يُسـار بهم إلاّ في الليـل. فـدخِـل بهم إلى حلب في ليلة السبت الحادي والعشرين من جُمادي الآخرة، وأُنـزلوا بهـا خفية من غيـر أن يعلم بهم أحـد. ثم أحضـروا إلى دمشق ومنهـا إلى مصـر، وادخلوا بالليـل وأُحضروا بين يـدي مولانـا السلطان، فقبّلوا الأرض بين يديه. وأحضروا بين أيديهم كتـاباً ومشـافهة تحدثوا بها.

نسخة عهد كتب بها القاضي محي الدين بن عبد الظاهر للسلطان الملك المنصور قلاوون عن الخليفة الإمام أبي العباس أحمد الحاكم بأمر الله

(صبح الأعشى ١٠/١١٦)

الحمد لله الذي جعل آية السيف ناسخة لكثير من الآيات وفاسخة لعقود أولي الشك والشبهات، الذي رفع بعض الخلق على بعض درجات، وأهلّ لأمور البلاد والعباد من جاءت خوارق تملّكه بالذي إن لم يكن من المعجزات فمن الكرامات.

ثم الحمد لله الذي جعل الخلافة العباسية بعد القطوب حسنة الابتسام، وبعد الشحوب جميلة الاتّسام، وبعد التشريد كل دار إسلام لها أعظم من دار السلام.

والحمدلله، على أن أشْهدَها مصارع أعدائها، وأحمد لها عواقب إعادة نصرها وإبدائها، وردّ تشتيتها بعد أن ظن كل أحد أن شعارها الأسود، ما بقي منه إلاّ ما صانته العيون في جفونها، والقلوب في سويدائها.

ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة يتلذذ بذكرها اللسان وتتعطر بنفحاتها الأفواه والأردان، وتتلقاها

ملائكة القبول، فترفعها إلى أعلى مكان. ونصلي على سيدنا محمد الذي أكرمنا الله به، وشرّف لنا الأنساب، وأعزّنا به حتى نزل فينا محكم الكتاب، صلّى الله وعلى آله الذين أنجاب الذين منهم عن أنجاب، ورضي الله عن صحابته الذين هم خير صحاب، صلاة ورضواناً يوفي قائلها أجره يوم الحساب من الكثرة بغير حساب يوم الحساب.

وبعد حمد الله على أن أحمد عواقب الأمور، وأظهر للاسلام سلطاناً اشتدت به للأمة الظهور، وشفيت الصدور، وأقام الخلافة العباسية في هذا الزمن بالمنصور، كما أقامها فيما مضى بالمنصور، واختار لأعلان دعوتها من يحي معالمها بعد العفاء، ورسومها بعد الدثور، وجمع لها الآن ما كان جمع عليها فيما قبل من خلاف كل ناجم، ومنحها ما كانت تبشر به صحف الملاحم، وأنفذ كلمتها في ممالك الدولة العلوية بخير سيف مشحوذ ماضي العزائم، ومازج بين طاعتها في القلوب، وذكرها في الألسنة وكيف لا والمنصور هو الحاكم - وأخرج لحياطة الأمة المحمدية ملكاً تقسم البركات عن يمينه، وتقسم السعادة بنور جبينه، وتقهر الأعداء بفتكاته، وتمهر عقائل المعاقل، بأصغر راياته، ذو السعد الذي مازال نوره يشق حتى ظهر، ومعجزه يرّف إلى أن بهره وجوهره ينتقل من جيد إلى جيد حتى علا الجبين، وسره يكمن في قلب بعد قلب حتى علم، والحمد لله، بنبأ تمكينه في الأرض

بعد حين، فاختاره الله على علم، واصطفاه من بين عباده بما جبله الله عليه من كرم وشجاعة وحلم، وأتى به الأمة المحمدية في وقت الاحتياج عوناً، وفي إبان الاستمطار غيثاً، وفي حين عيث الأشبال في غير الافتراس ليثاً، فوجب على من له في أعناق الأمة المحمدية مبايعة رضوان، وعند إيمانهم مصافحة إيمان، ومن وجبت له البيعة باستحقاقه لميراث منصب النبوة، ومن تصح به كل ولاية شرعية يؤخذ كتابها منه بقوة، ومن هو خليفة الزمان والعصر، ومن بدعواته تنزل بالنصر عليكم معاشر الإسلام ملائكة النصر، ومن بنسبه ينسب نبيّكم، (صلعم)، متّشج وحَسَبُه بحسبه ممتزج، أن يفوّض ما فوّضه الله إليه من أمر الخلق، إلى من يقوم عنه بفرض الجهاد والعمل بالحق، وأن يوليه ولاية شرعية تصح بها الأحكام، وتضبط أمور الإسلام، وتأتي هذه العصبة الإسلامية يوم تأتي كل أمة بإمامهم من طاعة خليفتهم هذا بخير إمام، وخرج أمر مولانا أمير المؤمنين ـ شرفّه الله ـ أن يكون للمقر العالي، المولوي، السلطاني، الملكي، المنصوري أجلّه الله ونصره، وأظفره وأقدره وأبده وأيّده، كل ما فوضّه الله لمولانا أمير المؤمنين من حكم في الوجود، وفي التهائم والنجود، وفي المدائن والخزائن، وفي الظواهر والبواطن، وفيما فتحه الله وفيما سيفتحه، وفيما كان فسد بالكفر والرجاء من الله أنه سيصلحه، وفي كل جود ومَنّ،

وفي كل عطاء ومن، وفي كل هبة وتمليك، وفي كل تفرد بالنظر في أمور المسلمين بغير شريك، وفي كل تعاهد ونبذ، وفي كل عطاء وأخذ، وفي كل عزل وتولية، وفي كل تسليم وتخلية، وفي كل ارفاق وإنفاق، وفي كل إنعام وإطلاق، وفي كل تجديد وتعويض، وفي كل حمد وتقريض، ولاية عامة تامة محكمة محكمة، منضدة منظمة، لا يتعقّبها نسخ من خلفها ولا من بين يديها، ولا يعتريها فسخ يطرأ، يزيدها مرّ الأيام جدة يعاقبها حسن شباب، ولا ينتهي على الأعوام والأحقاب، نعم ينتهي إلى ما نصبه الله للإرشاد من سنة وكتاب، وذلك من شرع لله أقامه للهداية علماً، وجعله إلى اجتياز الثواب سلماً.

فالواجب أن يعمل بجزئيات أمره وكليّاته، وأن لا يخرج أحد عن مقدماته.

والعدل فهو الغرس المثمر، والسحاب الممطر، والروض المزهر، وبه تتنزل البركات، وتخلف الهبات، وتربى الصدقات، وبه عمارة الأرض، وبه تؤدى السنة، والفرض، فمن زرع العدل اجتنى الخير، ومن أحسن كفى الضرر. والضير والظلم معاقبته وخيمة، وما يطول عمر الملك إلاّ بالمعدلة الرحيمة. والرعية فهم الوديعة ،عند أولي الأمر، فلا يخصص بحسن النظر منهم زيد ولا عمرو.

والأموال، فهي ذخائر العاقبة والمآل. والواجب أن تؤخذ بحقها، وتنفق في مستحقّها. والجهاد براً وبحراً، فمن كنانة الله تفوق سهامه، وتؤرخ أيامه، وينتضي حسامه، وتجري منشآته في البحر كالأعلام، وتنشر أعلامه، وفي عقر دار الحرب يحط ركابه، ويحط كتابه، وترسل أرسانه، وتجوس خلالها فرسانه، فيلزم منه ديدناً، ويستصحب منه فعلاً حسناً. وجيوش الإسلام وكماته، وامراؤه وحماته، فهم من قد علمت قدم هجرة وعظم نصرة، وشدة بأس، وقوة مراس، وما منهم إلّا من شهد الفتوحات والحروب، وأحسن في المحاماة عن الدين الدؤوب، وهم بقايا الدول، وتحايا الملوك الأُوَل، لا سيما أولي السعي الناجح، ومن لهم نسبة صالحية إذا فخروا بها قيل لهم: نِعْم السلف الصالح، فأوْسِعْهم براً، وكن بهم براً، وهم بما يجب من خدمتك أعلم، وأنت بما يجب من حرمتهم أدرى. والثغور والحصون فهم دخائر الشدة، وخزائن العديد والعدة، ومقاعد للقتال، وكنائن الرجاء والرجال، فأحسن لها التحصين، وفوِّض أمرها إلى كل قوي أمين، وإلى كل ذي دين متين، وعقل رصين. ونواب الممالك ونوّاب الأمصار، فأحسن لهم الاختيار، وأجمل لهم الاختبار، وتفقد لهم الأخبار.

وأما ما سوى ذلك، فهو داخل في حدود هذه الوصايا النافعة، ولولا أن الله أمرنا بالتذكير، لكانت سجايا المقر

الأشرف السلطاني، الملكي المنصوري، مكتفية بأنوار ألمعيته الساطعة، وزمام كل صلاح يجب أن يشغل به جميع أوقاته، هو تقوى الله، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله حق تقاته﴾.

فليكن ذلك نصب العين، وشغل القلب والشفتين. وأعداء الدين من أرمن وفرنج وتتار، فأذقهم وبال أمرهم في كل إيراد للغزو وإصدار، وثر لأن تأخذ للخلفاء العباسيين ولجميع المسلمين منهم الثأر، واعلم أن الله نصيرك على ظلمهم، وما للظالمين من أنصار.

وما غيرهم من مجاوريهم من المسلمين فأحسن باستنقاذك منهم العلاج، وطِبْهم باستصلاحك، فبالطب الملكي والمنصور ينصلح المزاج والله الموفق بمنه وكرمه.

نسخة تذكرة كتب بها عن السلطان الملك المنصور قلاوون بسبب قلعة صرخد من الشام، عند استقرار الأمير سيف الدين باسطي نائباً، والأمير عز الدين والياً بها في سنة ٦٧٩ هـ

من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر
(القلقشندي صبح الأعشى ١٣/ ٩٩)

تذكرة مباركة نافعة لكثير من المصالح جامعة، يعتمد عليها الأميران: سيف الدين، وعز الدين عند توجههما إلى صرخد المحروسة:

يعتمدان العدل في الرعية، وسلوك منهج الحق في كل قضية، واعتماد ما يرضي الله تعالى ويرضينا، وليكن الانصاف لهما عقيدة، والتقوى ديناً، ولا يتطلع أحدهما إلى ما في يد أحد من مال ولا نسب، ولا يعارض أحد أحداً بلا سبب، وليتّقوا الله ويخشوه. ويتجنّبوا الباطل ولا يغشوه، ولا يظن أحد منهم أنه قد بعد عنا، فيطمح إلى الظلم أو يطمع، فإنا منهم بمرأى ومسمع، وليكونوا على المصالح متفّقين، وبأذيال الحق متعلّقين، وعلى الرعية مشفقين.

فصل

يتقدمان بكشف أسوار القلعة المنصورة وأبراجها وبدناتها وأبوابها، ومايحتاج إلى إصلاح وترميم وعمارة، ويحرّران أمر ذلك تحريراً، ويجتهدان في إصلاح ما يجب إصلاحه وترميم ما يجب ترميمه، والمطالعة بما كشفاه وما اعتمداه.

فصل

يتقدمان بعرض حواصل مقدمي رجال القلعة، وأرباب الجامكيات والرواتب بها، ويحرران أمر مقرراتهم: من جامكية وجراية، ويجريان في صرف ذلك على العادة الجارية المستقرة.

فصل

يستوضحان من الأمير عز الدين، والأمير علم الدين المتصرفين عن المصالح المختصة بهذه القلعة، وعن أمورها جليلها وحقيرها، فإنهما قد أحسنا في ذلك التدبير، وأجلا التأثير وسلكا أجمل مسلك، ويهتديان بما يوضّحانه لهما من المصالح والمهمات، ليكون دخولهما في هذا الأمر على بصيرة.

فصل

يكـون أمر النيـابة والحكم العـام في القلعة المنصـورة، وتنزيل الرجال واستخدامهم وصرف من يجب صرفه، لـلأمير سيف الـدين باسـطي بمشـاركـة الأميـر عـز الـدين في أمـر النيابة، راجعاً للأمير سيف الدين باسطي، والحكم فيها له، ويكون أمر ولاية القلعة للأمير عز الدين، ويجريان في ذلـك على عادة من تقدمهما في هذه النيابة والولاية، ويكـون الأمير سيف الـدين في الدار التي كـان يسكنها الأميـر عز الـدين، وحكمـه في النيابـة كحكمـه، ويسكن الأميـر عـز الـدين في الـدار التي كان فيهـا الأمير علم الـدين، وحكمه في الـولاية كحكمـه. ولا يتعدّى أحـد طَوْره، ولا يخـرج عمّا قـرّر فيـه. ويرعى كل منهما لصاحبـه حقّه فيمـا رتّب فيه، ويتفقـان على المصالح كلها، ويكونان كروحين في جسد واحد.

فصل

يتقدّمان بأن يترتب في مراكزهم ومنازلهم على العادة في الليل والنهار، والحـرسيّة على العـادة في الليل والنهـار، وإن كـان ثمّ خلل في ذلـك، أو تفـريط أو إهمـال، فليستـدرك الفارط ويرتّب الأمر فيه على أحس ترتيب.

فصل

ينتصبان في أوقات العادة في باب القلعة، لكشف مظالم الرعية والبر، ويعتمدان إنصافهم وتلبية داعيهم وسماع كلمهم، وكفّ ظالمهم، وإعانة مظلومهم، واعتماد ما يجب من العدل، وبسطه في الرعية وكفّ الأيدي العادية.

فصل

أبواب القلعة إذا أغلقت في كل ليلة تبيت المفاتيح عند النائب في المكان المعتاد بعد ختم الوالي عليها على العادة، وإذا تسلّمها يتسلمها بختمها على العادة.

الذخائر والغلال يجتهد في تحصيلها بالقلعة، ولا تُخزن غلة جديدة على غلة عتيقة، وكل هرى يخزن فيه غلة يحرر أمرها، وتُشال عيّنتها في كيس، وتجعل في الخزانة، ويختم عليها، ولا يصرف من الجديد قبل نفاذ العتيق، ويُصرف من الجديد. وكذلك بقية الحواصل يسلك فيها هذا المسلك.

فصل

مهما جرت العادة بتثمينه على أرباب الجامكيات، والمقررات، فليجر الأمر فيه على العادة من غير حيف،

وليدخل الديوان والمباشرة في التثمين، لئلا يسلك أمر التثمين على الرجّالة والضعفاء مع قلة معلومهم، ويؤثر في ذلك أرباب الدواوين مع كثرة معلومهم، بل يكونوا أوّل من يُثمَّن عليه، ومن لا قدرة له: مثل راجل ضعيف، أو رب معلوم قليل به في ذلك نظراً في حق الضعفاء.

فصل

يكثرون من الأحطاب، ومن الفحم والملح بالذخائر، وكذلك من كل ما تدعو الحاجة إليه، ويجتهدون في تحصيل الأموال، وتوفيرها بالخزانة المعمورة، بحيث لا يكون لهما شغل شاغل عن ذلك، بل يصرفان الهمة في غالب أوقاتهما إلى الفكرة في حال يحصّلونه، أو صنف يدخّرونه، ولا يهملان ذلك.

فصل

يطالعان الأبواب العالية في غالب أوقاتهما بما يتجدد عندهما من المصالح، ومما يتميز من الأموال، وبما حمل إلى الخزائن، وإلى الاهراء من الأموال والغلال، وكذلك يطالعان نائب السلطنة بدمشق المحروسة على العادة في ذلك. ولتكن مطالعتهما جامعة وعليها خطّهما. ومن لاحت

لـه مصلحة في بعض الأوقـات، واختـار أن يـطالـع بـانفراده فليطالع.

فصل

لا يمكنان أحداً من الرجال المرتّبين بالقلعة المحروسة، وأرباب النُّوبَ أن يُخل بنوبته ولا يفارقها ولا يخرج من القلعة أحد من الرجال إلاّ بدستور، ويعود في يومه والله الموفق.

قلت: وبـالجملة فالتـذاكر منوطـة بحـال المكتـوب، لـه التذكره والمكتوب يسببّه، فيختلف الحال باختلاف الأسباب، ويؤتى لكل تذكرة بفصول تنـاسبها بحسب مـا تدعـو الحاجـة إليه.

نسخة الصلح مع صاحب سيس والأرمن
سنة ٦٨٤ هـ

(تشريف الأيام والعصور في بسيرة الملك المنصور ص ٩٣ - ١٠٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

وأقول - وأنا ليفون بن ميتوم بن كسطين - : والله والله والله، وتالله، وتالله، وتالله، وبالله وبالله وبالله، وحق المسيح وحق المسيح، وحق الصليب وحق الصليب وحق الصليب، وحق الإنجيل وحق الإنجيل وحق الإنجيل، وحق الأب والابن وروح القدس، وحق الصليب الأعظم المستقل بالناسوت الأكرم، وحق الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد، وحق الأناجيل الأربعة التي نقلها متى ولوقا ومرقس ويوحنا، وحق صلواتهم وتقديساتهم، وحق التلاميذ الإثني عشر والثلثمائة وثمانية عشر المجتمعين على البيعة، وحق الصوت الذي نزل على الأردن فزجره، وحق الله منزل الإنجيل على عيسى بن مريم روح القدس وكلمته، وحق المباركة أم النور ماري مريم، ويوحنا المعمودي، ومار توما، ومار متى، وحق الصوم الكبير، وحق ديني ومعتقدي النصرانية، وما تلقيته من الأقساء والأباء من المعمودية، وحق كل أب مقرب.

إنني من وقتي هــذا وسـاعتي هـذه قـد أخلصت نيتي، وأصفيت طـويتي في الـطاعـة وفي الـوفـاء لمـولانـا الـسلطان الملك المنصـور، سيف الـدنيـا والـدين، سلطان الإسـلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين، سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والفراتية وقـلاع الروم وبـلادها وبـلاد الشرق، ملك البسيطه أبي الفتح قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين، ولولده المولى السلطان الملك الصالح علاء الـدنيا والـدين أبي الحسن علي، خليل أمير المؤمنين وولده الملك الأشـرف صلاح الـدنيا والـدين خليل نـاصـر أمير المؤمنين، بجميع هذه الهـدنة المشـروحة تلو هـذه اليمين، التي مدتهـا عشـر سنين كوامـل متتابعـات، وعشرة سـاعـات، أولهـا يـوم الخميس المبـارك مستهل شهـر ربيع الآخـر سنة أربـع وثماني وستمائة للهجرة النبويـة صلوات الله على صاحبهـا وسلامـه، المـوافق لذلـك اليوم اليـوم الـسابع من حـزيـران سنـة ألف وخمسمـائة وستـة وتسعين للاسكنـدر بن فيلوس اليـونـاني. وأحفظها إلى آخـر مدتهـا، وأعمل بشـروطها شـرطاً شـرطاً، وألتزم الوفاء بها وبما تضمنته، ولا أخالفها بقـول ولا فعل ولا رمـز ولا إشـارة ولا أتـأوّل في يميني هـذه ولا في الهـدنـة المذكورة، ولا أتحيّـل في نقضها ولا نقـض شيء منهـا، ولا أستغني فيها ولا في شيء منها، ولا في شرط من شروط هذه الهدنة المذكورة. فإن نقضتها أو نقضت شيئاً منها أو استفتيت

فيهـا، أو استثنيت فيها أو في شيء منهـا فكـل مـا أملكـه من صامت وناطق صدقة على الفقراء والمساكين من النصـارى، وعليّ المشي إلى البيت المقدّس حافياً حاسـراً راجلاً ثـلاثين مرة، وعليّ صوم الدهر كله إن خالفت شروط هذه الهدنة، أو شيئاً منها، أو اعتمدت ما ينـافي الوفـاء بها أو بشيء منهـا من أولها إلى آخر هذه الهدنة المعيّنة في هذه اليمين وهي:

هذه الهدنـة المباركـة التي استقرت بين مـولانا السلطان الملك المنصـور السيـد الأجـلّ والعـالم العـادل المـظفّـر سيف الدنيا والـدين، سلطان الإسلام والمسلمين أبي الفتـح قـلاوون الصالحي أميـر المؤمنين وولده وولي عهـده المـولى السلطان الملك الصالح علاء الـدين أبي الحسن علي خليل أميـر المؤمنين، وولده المـولى الملك الأشرف صـلاح الدنيـا والـدين خليـل أميــر المؤمنين خلّد الله سلطانهم وبين الملك الجليـل لَيْفون بن الملك هيثوم بن كسـطنتين ملك الأرمن لمـدة عشر سنين كـوامل متـواليات متـابعـات وعشـرة أشهـر وعشـرة أيام وعشـر ساعـات أولّها يـوم الخميس مستهل شهـر ربيـع الآخر سنـة أربع وثمـانين وستمائـة الموافق ذلـك اليوم السابع من حـزيران سنـة ألف وخمسمائـة سنة وستـة وتسعين سنة للاسكندر بن فيلبس اليونـاني على بلاد مـولانا السلطان الملك المنصـور وقلاعـه وحصونـه وممالكـه ومدنـه وأقاليمـه

ورعـايا بـلاده من عساكـر وجنود وجيـوش وحشـود وتـركمـان وأكـراد وعـرب ومسلمين ونصـارى وسـائـر طـوائف النـاس أجمعين على اختـلاف أديانهم وأنفـارهم وعلى ما تحـويه من أموال ومواش وصامت وناطق وسار وسارح ومتحـرك وساكن، وبر وبحر وموانٍ وسواحل وسهل وجبـل عامـر ودائر. وهي مملكة الديار المصرية وثغورهـا وبلادهـا وموانيهـا وسواحلهـا وبرورها والمملكـة الساحليـة وسواحلهـا وموانيهـا وبرورهـا، والمملكـة الكركيـة، والمملكة الشـوبكيـة، ومملكـة الصلت والبلقـاء، ومملكـة عجلون، ومملكـة صـرخـد، ومملكـة الصبيبة، والمملكة الصفدية والشقيفيـة والممكلة الدمشقيـة، والمملكة البعلبكية وسائر الممالك الشامية والقلاع الإسلاميـة والمملكـة الحمصيـة، والمملكـة الـرحبيـة، والفتـوحـات الحصنية: حصن عكار، وفتوحاته، وحصن الأكراد وفتوحاتـه، وحصن المرقب وفتوحاته وموانيه: بانياس ومـا دخل في هـذا الفتـوح بَلَده، وحَبَلة، والـلاذقيـة، وبلد الست، ومملكـة بَلاطُنس وبلادها، ومملكة صهيون وبلادها، ومملكة شيـزر، ومملكـة حماة، ومملكـة حلب، ومملكـة بغـراس، ومملكـة الـدربسـاك، ومملكـة عيّنتـاب، وبـرج الـرصـاص، والـرَاونّـدان، وتـل بـاشـر، ومنبـج، وقلعـة جعبـر، ومملكـة البيرة، ومملكة كركر، ومملكة الكختا، وقـطينا، وبـابلو، وما انتهت إليه البلاد السلطانيـة بممالـك الشرق والـروم وكل مـا

استقر في يد نواب مولانا السلطان الملك المنصور إلى تاريخ هـذه الهـدنــة من البـلاد والفتـوحـات والحـدود والأراضي والقلاع، وما سيفتحه الله على يد مولانا السلطان، وعلى يـد عسـاكره، وجيـوشه، وبعـونه من البـلاد والأقاليم، والثغـور، والقرى، والضياع، والمصايف،والمشـاتي شرقاً وغرباً، وبُعداً وقرباً، وعلى مـا ذكر من البـلاد السلطانية وعلى مـا لم يذكـر منها، ومن بها، وما بها، وعلى بلاد الملك لِيْفون ابن الملك هيثوم المستقرة بيده إلى حين استقرار هذه الهدنة، وهي بلاده المعروفة به، تستقر بلاد مولانا السلطان الملك المنصور ومـا عيّن منها وما لم يُعيّن، وبلاد الملك ليفون المستقرة بيده آمنه مطمئنة على قـواعد الصلح والمهـادنة هي ومن بهـا من رعيته وأمـرائه، وأجنـاده، ومن يتعلق به، وينسب إليـه، وما حـوتـه بلاده من أموال ومـواش وقرى وزروع، وضيـاع محروسـة من الجـانبين في الليـل والنهـار، والغـدو والـرواح، والمسـاء والصباح محفوظة المسالـك، مصونـة الأطراف والجهـات براً وبحـراً، من المتعرضين بـالأذية، والمتعبثين بـأيدي العـدوان والمتلصّصين من الحرامية والمغيـرين والمفسدين لا تتعـرض جهة إلى أخرى بحالة من الحـالات التي تخالف شـروط هذه الهدنة. ولا يُنقض بها حكم الصلح الذي استقـر أمره، وثبت في الأذهان علمه. وأن تتـردد التجـار من الجـانبين بـأمـوالهم وبضائعهم ومتاجرهم صادرين وواردين. وليخفـروا إلى حدود

البلاد ولا يمنعوا من التردد ولا يؤذوا بسبب من الأسباب.
وعلى أن الملك ليفون ابن الملك هيوم يقدم لمولانا السلطان الملك المنصور ولولده وولي عهده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين وولده السلطان الملك الأشرف في كل سنة من استقبال تاريخ هذه الهدنة وإلى انقضاء مدتها على حكم القطيعة المتسقرة عن نفسه وعن رعيته وعن بلاده بما يأتي ذكره ونقد رنة معجّله. وهو من الفضة الحجر الطّللفم التكفورية خمسمائة ألف درهم وزن نصفها. مائتا ألف درهم وخمسون ألف درهم. ومن الخيل الجياد، والبغال الجياد وخمسون رأساً، تفصيله: أكاديش جياد خمسة وعشرون رأساً، بغال جياد خمسة وعشرون رأساً. ومن التطابيق الحديد الجياد عشرة آلاف تطبيقة بمساميرها محمولة إلى أي جهة رسم له بحملها إليه من البلاد السلطانية. وليستقر حمل ذلك في كل سنة من مملكته. وتكون السنة الأولى معجّلة، ويستمر حمل هذه الجملة المعيّنة في كل سنة إلى انقضاء هذه الهدنة المباركة، وعلى أن الملك ليفون يلتزم بإطلاق جميع من في اعتقاله من التجار المسلمين على اختلاف طوائفهم وأجناسهم بأموالهم وبضائعهم ومماليكهم وجوارهم وخيلهم وبغالهم، وإطلاق جميع المسلمين المأسورين المعتقلين في قلاعه وفي بلاده من سائر أجناس الناس على اختلاف أجناسهم وأنفارهم وتجهيز الجميع إلى الأبواب

العالية، ولا يعوِّق منهم أحداً ويجهزهم جميعهم إلى الأبواب العالية، ومن كان قد مات في اعتقال الملك ليفون من التجار المسلمين فيلتزم الملك ليفون بالقيام بمال التجار الذين ماتوا في اعتقاله لمولانا السلطان المنصور، وبمماليكهم وجوارهم وبضائعهم ولا يخفي شيئاً من ذلك ويقدم عن التاجر الذي مات بأسير مثله.

ومهما كان قد فرطّ فيه من بضائعه وأمواله ورقيقه يقدم بقيمة ما فرطّ فيه لمولانا السلطان الملك المنصور ـ خلّد الله ملكه ويجهز ذلك إلى مولانا السلطان الملك المنصور ولا يعتذر عنه بعذر. وعلى أن مولانا السلطان الملك المنصور يطلق للملك ليفون من هو معوّق من رسله وغلمانهم وأتباعهم المعتقلين بمصر والشام، وإن كان في الاعتقال أحد من تجار الأرمن يطلق أيضاً بماله الموجود، وعلى أن التجار المترددين من الجهتين لا يُحدثَ عليهم حادث، ولا تجدّد عليهم مظلمة، ولا يزداد عليهم حقّ حفيز في وجهة من الجهات، ويُسلك بهم منهج العدل والانصاف، وعلى أنه من دخل إلى بلد الأرمن من بلد الروم وبلد المشرق والمغرب والعراق وبغداد والعجم وسائر البلاد قاصداً البلاد السلطانية من التجار والرعية والوافدين وسائر الناس أجمعين يفسح لهم في الحضور إلى البلاد السلطانية ولا يعوّقهم ولا يمنعهم. ولا يقفوُ هؤلاء من رعية التتار ولا من أولادهم ولا ممّن يتعلق

بهم، وعلى أنه متى مات أحد من التجار المسلمين ببلاد الملك ليفون يُحفظ بماله ويُسلّم لنواب مولانا السلطان الملك المنصور ليعتمدوا فيه موجب الشرع الشريف. وللملك ليفون مثل ذلك في تجار بلاده الأرمن الذين يموتون في البلاد السلطانية، وعلى أنه متى انكسر مركب لأحد الجانبين بالجهة الأخرى يُحفظ بما يوجد فيه ويُحترز عليه، ويسلّم لنواب الجهة التي يكون التاجر المتوفى منها. فإن كان ذلك التاجر من رعية مولانا السلطان الملك المنصور أو من غلمانه فيسلّم لنواب مولانا السلطان الملك المنصور، وإن كان من رعية الملك ليفون فيسلم لنوابه ليعتمدوا في ذلك موجب العدل والانصاف، وعلى أنه متى هرب أحد من بلاد مولانا السلطان كائناً من كان، أميراً كان أو مأموراً، مملوكاً كان أو حراً من سائر الطوائف والأجناس والأديان، ودخل إلى بلاد الأرمن يلتزم الملك ليفون ونوابه بامساكه وإنفاذه تحت الحوطة إلى الأبواب السلطانية بجميع من يهرب معه وبما يوجد معه من رفقة وغلمان وخيل وبغال وقماش ومال وغير ذلك. ولو تنصّر الهارب وانتقل عن دينه يلتزم الملك ليفون برده إلى مولانا السلطان الملك المنصور ولا يعتذر بعذر ولا يحتج بحجة في أمره. وإن هرب أحد من رعية الملك ليفون وغلمانه وأجناده واستمر على دينه يلتزم نواب السلطان برده إليه.

وإن دخل في دين الإسلام يـرد المال الذي يوجـد معه، وعلى أن الممنوعات من السلاح والعدد وغيرِ ذلك من البـلاد السلطانية يستقر حال المنع فيها على العادة، وعلى أن الملك ليفـون لا يمنع أحـداً من التجار ولا من غيـر التجار من جلب المماليك والجوار والخيل والبغال وسائـر أصناف البضـائع عن الحضور بهم إلى البلاد السلطانية ولا يعوُقهم ولا يفسح لأحد في أن يعوّقهم ويفتح الطريق لهم ليجلبوا المْمـاليك والجـوار والبضـائع والخيـل والبغال وسـائر الأصنـاف وسـائر أجنـاس الممـاليـك وأجنـاس الجـوار على اختـلافهم ولا يعـوّق منهم أحداً وعلى أنه متى أخـذت أخيذه أو قتـل أحد من الجـانبين يسلّم القـاتـل ليُقتصّ منـه، وتـرد الأخيـذه بعينهـا إن كـانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة. والقتيل يقام عنه بعد ردّ ماله بأسير مثله: الفارس بفارس، والتركبلي بتركبلي، والتاجر بتاجر، والراجل براجل، والفلّاح بفلاح. فإن خفي أمر القتيل أو أمـر الأخيذة تكـون المهلة في الكشف عن ذلـك أربعين يوماً. وإن لم يظهر أمـرها حُلِّف والي تلك الجهـة وثلاثـة نفر تختارهم الجهة الأخرى. وإن ظهر أمر الأخيذة أو أمـر القتيل بعـد اليمين عاد الـطلب بـالحق على حـالـه، وعلى أن قلعـة الروم وخليفة الأرمن من الكتـاغيكو (بـطريرك الأرمن) المقيم بهـا ورهبانـه ومن يتعلّق به بهـذه الجهة ومجـالها من الـرعيّـة والفلاحين يكونون داخلين في حكم هذه الهدنة، كمـا استقر

في الهدنة الظاهرية.

تستقر هذه بشروطها وقواعدها المحرّرة إلى انقضاء مدتها لا تنتقض بموت أحد من ملوك الجبهتين ولا بعزل نائب أو والٍ وتولية غيرهم، ولا بدخول رجل غريبة ولا بيد غالبة من التتار ولا من غيرهم، بل تكون أحكام هذه الهدنة مستمرة على حالها، وأنني التزم الوفاء بها بجميع شروطها ولا أخرج عن حكم من أحكام هذه الهدنة، ولا أغمز على بلاد مولانا السلطان الملك المنصور ولا على عساكره ولا على رعاياه من يقصدهم بغارة ولا بمضرة ولا بأذية، ولا أدخل في مشورة تؤدي إلى اعتماد سوء أو مكروه، ولا أحسن لأحد من أعداء مولانا السلطان الملك المنصور ولا أنجده ولا أساعده ولا أوافقه عليه برمز ولا حظ، ولا مراسلة ولا مكاتبة، ولا مشافهة، بل أكون مدارياً عن نفسي وعن بلادي، وأجتهد كل الاجتهاد في حفظ بلاد مولانا السلطان الملك المنصور ومنع من يتخطى إليها من بلاد بأذيّه أو عدوان، ومتى وقع، والعياذ بالله. فُسخ من أحد الجهتين يكون التجار والسُفّار والمترددون آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم ومماليكهم وجَوارِهم وخيلهم وبغالهم. وتكون المهلة أربعين يوماً حتى يعود كل أحد إلى مأمنه ووطنه ببضاعته وبماله من غير معارض له في ذلك مدة هذه الهدنة المباركة التي أولّها مستهل شهر ربيع الآخر المبارك

من سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية صلوات الله على صاحبها وسلامه، الموافق ذلك لليوم السابع من حزيران سنة ألف وخمسمائة وخمسة وتسعين للاسكندر بن فيلبس اليوناني. وإنني والله وحق ديني ومعبودي واعتقادي - ألتزم بجميع هذه الهدنة وهذه اليمين يميني وأنا ليفون بن هيثوم والنية فيها نيّة مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي ونيّة ولديه المولى السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين، والمولى السلطان الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين، ونيّة مستحلفي لهم، لا نية لي غير نيتهم ولا قصد لي غير قصدهم، أشهد الله عليّ بذلك والله على ما أقول وكيل، والمسيح شهيد عليّ بذلك، وعلى ذلك وقع الشرط والاتفاق في التاريخ المذكور أعلاه.

هدنة صور بين السلطان المنصور قلاوون وبين مرغريت ملكة صور
(تشريف الأيام والعصور ص ١٠٣ - ١١٠)

بسم الله الرحمن الرحيم. استقرت الهدنة المباركة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قسيم أمير المؤمنين وولده، وولي عهده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين عليّ خليل أمير المؤمنين وولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل - خلّد الله سلطانهما وأدام دولتهم، وبين الملكة الجليلة دام مراريت بنت سيرهري بن الإبرنس بيمند[1] مالكة صور حال استقرار هذه الهدنة، ونائبها بمملكة صور، وهو القُومص الجليل ريموند سير ريموند يسكند[2] لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات، أولها يوم الخميس الرابع عشر من جمادي الأول سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية، صلوات الله على صاحبها وسلامه، الموافق الثامن عشر تموز سنة ألف وخمسمائة وستة وتسعين للاسكندر بن فيليبس اليوناني، وآخرها الرابع عشر جمادي الأول سنة أربع وتسعين وستمائة الموافق للثامن عشر من تموز سنة الف وستمائة وخمسة

---

(١) Marguerittes Fille de Henri Filsdu Prince Boemond أي أنه كتب مراريت بدلاً من مرغريت وهري بدلاً من هنري.

(٢) هكذا كتبت في الأصل.

للاسكندر، يتبع بعضها بعضاً، على حكم ما استقر عليه الحال إلى آخر أيام الملك الظاهر، رحمه الله، متتالية الساعات والأيام والشهور والسنين إلى آخرها على جميع البلاد الإسلامية الداخلة في ممالك بلاد مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين، قلاوون الصالحي، قسيم أمير المؤمنين، وبلاده وقلاعه ومدنه وحصونه، وما اشتملت عليه مملكة الديار المصرية، وما فيها من الثغور والقلاع والحصون والمدن، والثغور الساحلية، وما اشتملت عليه من الحصون، ومن برور، ومن موانيء، ومن بلاد.

والبلاد البعلبكية والحمصية والحموية والفتوحات الشريفة بحصن الأكراد وحصن عكا، وما يضاف إليها، ودخل في جملتها من ثغور وبلاد معاهدية وحصون وبرور وسواحل، والمملكة الحلبية والفتوحات الأنطاكية، وما هو مجاور لصور من المملكة الصَفَدية والشقيفية وغيرها من القلاع والحصون والبلاد، ، على كل ما هو داخل في مملكة مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين من ممالك وحصون وقلاع وثغور ومدن وقرى وسواحل وموانيء وبرور، قريبا وبعيدها، سهلها وجبلها، عامرها ودائرها، غورها ونجدها، شرقها وغربها، يمنها وحجازها، شآميتها ومصريها، وما تشتمل عليه من قرى ومزارع وأنهار وطواحين، وأبراج وبساتين، وعلى ما حوته هذه الممالك وتحويه من عساكر

وجند، ورعايا وعرب، وتركمان وأكراد، وفلاّحين وسائر أجناس الناس أجمعين على اختلاف أجناسهم وتغاير أشكالهم وأديانهم، وعلى أموالهم ومواشيهم على تغاير أصوافها وأوبارها، والأموال على تغاير أجناسها.

تكون هذه الممالك المذكورة، وما اشتملت عليه، ومن فيها من سائر الناس أجمعين الساكنين بها والقاطنين والمتردّدين إليها، ومنها ومن فيها من التجار والسُفّار آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومواشيهم في حالتي صدورهم وورودهم وسفرهم وإقامتهم، وبالمعاهدية من البلاد والجهات، وما سيفتحه الله على يد مولانا السلطان الملك المنصور، وعلى يد أولاده ويد عساكرهم وجنودهم، وجيوشهم من الحصون والبلاد والقلاع يجري عليها وعلى من فيها، وما فيها حكم هذه الهدنة المباركة إلى آخر مدّتها، وعلى بلاد الملكة دام مراريت بنت سرهري بن الإبرس بيمند المعيّنة لها خاصاً ومناصفة في هذه الهدنة، وهي مدينة صور وما دارت عليه أسوارها وضواحيها خاصة، وما فيها من الأراضي التي تزرع فيها البقول والاقصاب والمعاصر التي لا دمنة لها، وهي المعوقة ورشمون - أراضي الزيتون - من الضواحي التي لا دمنة لها، وبستان العوجا الذي لا دمنة له، والحكورات والطواحين التي حول مدينة صور، تكون هذه الضواحي المذكورة بما

فيها من أراضي الأقصاب ومزارع البقول والمعاصر التي من جملة الضواحي خاصة لصور. وذلك بشرط أن تكون رشمون والمعوقة وبستان العوجا أراضي من ضواحي صور بغير دمَن، ولا قرى، وعلى أن يكون لمولانا السلطان الملك المنصور ولأولاده السلطان الملك الصالح والملك الأشرف نصرهم الله، خاصاً لهم الخمسُ الضّياع من ضياع صور من أجودها وأكثرها متحصّلاً من عين وغلّة، التي استقرت في الخاص الشريف السلطاني من الأيام الظاهرية، وهي: قانا ومزرعتها، القَروية، أصريفيا ومزرعتها، حانا يحن وما بكمالها، المجادل بكمالها، كفردبين بكمالها على ما استقر عليه الحال إلى آخر الأيام الظاهرية.

تكون هذه الخمس القرى خاصاً جميعها بأراضيها وحدودها وحقوقها، وكل ما هو داخل فيها ومنسوب إليها لمولانا السلطان الملك المنصور، ولأولاده من غير مشاركة لهم في ذلك وتكون للملكة مراريت مالكة صور من ضياع صور عشر ضياع من قرايا مرج صور خاصاً لها على ما هو مستقر في الهدنة الظاهرية: إن هذه العشر الضياع تكون خاصاً لمملكة صور حسبما عيُنت باسمائها منها، وهي: عين أبي عبدالله، القاسمية، سدس، تحلب، المرفوف، الجارودية، الجمادية، مرفله، رأس العين، برج الاسبتار، تكون هذه العشر الضياع المذكورة بحقوقها وحدودها وأراضيها، وما هو داخل فيها خاصاً لملكة صور دام مراريت

مالكة صور، وعلى أن تكون بقية بلاد صور جميعها بما فيها من مزارع وعدتها بما فيها من المزارع ثماني وسبعون ضيعة ومزرعة، وهي: الطالية، دريتة، الدهرية، الفنونية، العثية، وادي الحجاج، العريتة، البحينة، المالكية، دير عمران، التعنبية، الكبية، بابولية، الحميّة، دير قالون، عزايفال، الزيادات، وحيوية، زبقين، بني دفنع، مارنين، عيا، صديقي، رسكيانيه، رفلية، عثليت ومزرعتها، الملاحات، السحنونية، الفراخية، طرقان الدير، المعلية، الخميرا، روتية، بابوح، مقعة، البارورية، كفر دهّال، حويا ومزرعتها، سرفية، مجدل، بيت روح، طرسا، فسون، التفاحية، أمد، ركنا، مارون، صرسنحات، كفرناي، بني باقتله، معولة، طفلة، أشحور، الرمر، الفهرون، دور دغيا، أبروخية، هرين، الصواني، حلوسية، معروب، بعليث، در فانون، طرديا، بدياس، النعمانية، بدوث، الحمرانية، طورا، السرفيات، بردسيل الجديدة، العباسية، السفلسة، أشحور، الفاه، شادسه، العجيلة، المصرية، وذلك خلا المعوقة، ورشمون، وبستان العوجاالتي ذكرناها ليست بقراه وأن المعوقة إسم المعصرة، وبستان العوجا غير قرية، ورشمون غير قرية، وإن كانت قرى كانت من جملة بلاد المناصفات، وإن لم تكن قرى كانت من جملة ضواحي المختصة بها.

وحدود هذه البلاد جميعها من جهة القبلة مرفلة، وقرية دير عمران، وبرج وادي الحجاج، والعربية، وريف، وبارين، ومن الشرق عنافة، سكاسة، ومجدل شرقية والسحنونية الداخل ذلك المناصفات، وقانا، ومحروما، والمجادل، وكفر دبين الداخل في الخاص الشريف، ومن الشمال أصريفيا الداخلة في الخاص الشريف، ونهر القاسمية، ومن الغرب البحر، تكون هذه القرايا المذكورة في هذه الهدنة جميعها بمزارعها وحقوقها، وأراضيها وطواحينها وأنهارها وبساتينها ودِمَنِها، ومتحصلات مغلّاتها من وجوه العين والغلّة مناصفة بين مولانا السلطان الملك المنصور، وبين الملكة دام مراريت مالكة صور، يقسم جميع المتحصّل بها من وجوه العَيْن والغلّة، وحقوق، وزكاوات وعداد، وحُكُورات، وأجر وضمانات، وخراجات وجبايات، ومواريث، وغير ذلك من سائر الحقوق قليلها وكثيرها، نصفين بين الجهتين بالسوية.

ويستقر الحال في جميع الأشياء، كما كانت إلى آخر الأيام الظاهرية، وعلى أن يكون المباشر لهذه الضياع والمناصفات المذكورة، والمستخرج لأموالها وغلالها نواب مولانا السلطان الملك المنصور، عزّ نصره، باتفاق مع نواب الملكة دام مراريت مالكة صور، بحيث لا تنفرد جهة عن جهة باستخراج درهم ولا غيره، وعلى أن يستمر الشخص

بـأرض الزَهَـرية في المكـان الذي جـرت به عـادته في الأيام الظاهرية، وعلى أن تكون هذه البلاد المختصـة بمالكـة صور آمنـة مطمئنـة هي ومَنْ فيها من عسكـرها وخيّـالتها ورجّـالتها ورعيّتها وتجارهـا على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومـواشيهم في حـالتي صدورهم وورودهم وسفـرهم وإقـامتهم إلى آخـر هـذه الهـدنـة، وعلى أن التجـار والسُفّـار والمتـرددين من الجهتين، يترددون ويبيعون ويشتـرون ، ويوردون ويصـدرون آمنين مـطمئنين على نفوسهم وأمـوالهم وعلى أنـه لا يُحـدث عليهم شيء غيـر مـا جـرت العـوائـد بـه من الجهتين، وأن الممنـوعات مُستقِرٌ حالهـا في البيع على حـالتهـا، وعلى أن المراكب من الجهتين المترددة في البحر، تكون كل فرقـة منها من الفـرقتين آمنـة من الفـرقـة الأخـرى مـطمئنـة في البحـور والمراسي، والدخول والخروج، تلتزم كل طائفة من الجهتين كفّ الأذية عن الجهة الأخـرى، وعلى أنه متى انكسـر مركب من الجهتين، وإن كـان لمسلم تسلّمه لـه إن كـان مـوجـوداً، ولنواب مولانا السلطان إن كان مفقوداً. وإن كان لنصراني من بـلاد مـولانـا السلطان ـ عزّ نصره ـ فـالحكم فيـه كحكم المسلم. وإن كـان من أهل صـور ومن رعيّة الملكـة مـالكـة صـور، يسلّم له المـال إن كان مـوجوداً، ولـديوانهـا إن كـان مفقوداً. وإن مات أحد من الجهتين في الجهة الأخـرى، ولم يكن لـه وارث، يجـري عليـه الحكم من الجهتين ولا يُخفى

ماله، وعلى أنه متى قُتل أحد من الجهتين ووُجد القاتل، فإن كـان القاتـل مسلماً يحكم فيـه نواب مـولانـا السلطان الملك المنصور ـ نصره الله ـ بما تقتضيه سيـاسة السلطنـة الشريفـة المطهّرة، وإن كان نصرانياً من أهل صور تحكم فيه الملكـة دار مراريت مالكة صور، كـل جهة بحضـور نائب من الجهـة الأخرى يباشر الحكم فيه بما تقتضيه أحكـام الجهتين. وذلك يكون الحكم في كل من تعدّى وأسرف واغتـال، يتولى ذلـك نواب مولانا السلطان تأديب المسلم، وتأديب النصراني يتولاه نـواب الملكة مـالكة صـور، وإن خفي أمر القتيـل كانت ديـة الفـارس من الجهتين ألفاً ومـائـة درهم صـوريّـة. والتـركبلي مائتي درهم، والفلّاح مائة دينار، والتاجر تكون ديّته على قدر جنسه وأصله ومقدرته، يؤخذ ذلك من أهل القرايا التي يقتـل فيهـا ذلك الشخص جنـاية لهم وتـأديباً جملة واحـدة، يعتمد ذلـك من الجهتين. وإن كان المقتـول في المنـاصفـات كـان متحصّل الجنايـة مناصفـة، وعلى أنه متى اخِـذت أخيذة تـرد بعينهـا إن كانت مـوجودة، أو قيمتهـا إن كـانت مفقـودة. وإن خفي أمر القتيل أو أمر الأخيدة كـانت المهلة في الكشف عن أمـره أربعين يومـاً. وإن لم يظهـر لـه خبـر، حُلِّف والي تلك الجهة وثلاثة أنفار ممن تختارهم الجهة الأخرى. وإن امتنعوا من اليمين لزمت الجناية المذكـورة وقيمة الأخيـدة، وعلى أنه متى هرب أحد من الجانبين يُرَدّ بما معه، ومتى هـرب مملوك

من أي جنس كان يُرد بجميع ما معه ذكراً كان أو أنثى، عبداً كان أو حراً، يعتمد ذلك من الجانبين. وعلى أن الملكة دام مراريت مالكة صور لا تستجد بناء قلعة ولا تجديد سور، ولا حفر خندق، ولا ما يتحصّن به مما يمنع أو يدفع.

وعلى أن مولانا السلطان لا يفسح لأحد من عساكره، ولا من جنوده، ولا من أهل بلاده من التطرق لبلاد صور المعيّنة في هذه الهدنة بأذية ولا ضرر، ولا سرقة ولا عدوان ولا غدر، لا في بر، ولا بحر، ولا يتعرض أحد من عساكر مولانا السلطان وجنوده ومعاهديه للملكة دام مراريت مالكة صور لا في نفسها، ولا في خيالتها وأصحابها، خلا الاسماعيلية الذين تحت حكم مولانا السلطان.

ولمولانا السلطان أن يجهز من شاء منهم إلى مالكة صور بالسوء والضرر متى أراد. وعلى أن الملكة دام مراريت. مالكة صور تلتزم حفظ بلاد مولانا السلطان من جهتها من متجرّم، أو مفسد، أو رِجْل غريبة، وسائر الافرنجية يتطرق من بلادها إلى بلاد مولانا السلطان بأذية أو إغارة، أو فساد، أو عدوان.

وعلى أن الملكة دام مراريت مالكة صور لا توافق أحداً من سائر الفرنجية على أمر فيه أذية لبلاد مولانا السلطان أو ضرر على ممالكه أو رعاياه وسائر من فيها، وما فيها، ولا

تساعد أحداً على ذلك برمز ولا بكتابة، ولا إشارة، ولا رسالة إلى حين انقضاء هذه الهدنة.

ولها من مولانا السلطان مثل ذلك، وعلى أنه متى انقضت الهدنة أو وقع، والعياذ بالله. فسخ من أحد من الجهتين، كانت المهلة للتجار والسُفّار والمترددين أربعين يوماً حتى يعود كل أحد بماله إلى مأمنه ووطنه آمنين مطمئنين مخفرين من الجهتين.

تستقر هذه الهدنة بشروطها المحرّرة، وقواعدها المقرّرة، لا تنتقض أحكامها، ولا ينفك نظامها بموت أحد من الجهتين، ولا بعزل والٍ ولا تولية غيره، ولا برجْل غريبة، ولا بيد غالبة، بل تستمر مدتها وتوفّى عدتها، وهي عشر سنين كوامل متتاليات، أولها الرابع عشر من جمادي الأولى سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية الموافق لليوم الثامن عشر من شهر تموز من سنة الف وخمسمائة، وآخرها الرابع عشر من جمادي الأولى من سنة أربع وتسعين وستمائة الموافق الثامن عشر من تموز من ألف وستمائة، وخمسة للاسكندر بن فيليبس اليوناني.

يلتزم كل من الجهتين حفظها إلى آخرها. ومن تولى بعد الأخر حفظها إلى آخرها. والخط الشريف أعلاه حجّة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

فتح حسن المرقب

تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور

(٧٧ - ٨٦)

وهو حصن عظيم منيع مازال مولانا السلطان الملك المنصور نصره الله يدأب في أمره ويتحيّل في تحصيله للإسلام ويستفيد الرأي والتدبير في افتتاحه وإصحاب جماحه لأنه كان قد أعجز الملوك، ولم يقدر أحد على التقرب منه فكيف النزول عليه.

واجتهد الملك الظاهر في الإغارة عليه مراراً فما قدّر الله ذلك ولا سهّله، ولا عاج على قسْميته ولا عجّله. وتوجه إليه مرة من حماة فصادفته ثلوج وبَرَد وأمطار، وحجبته عنه وحجزته المضايق والأوعار، ومرة من غير حماة ولم يحصل له منه قصد بالجملة الكافية. وخبأه الله لمولانا السلطان ليكون من فتوحاته المنيرة، ولتطرز به أحسن سير وكان بيت الاسبتار الذين به قد زاد بغيهم وعدوانهم وكثر فساده، حتى بقيت أهل القلاع المجاورة لهم كأنهم في حبس، بل في رمس. وكان الفرنج يعتقدون أنه لا يدرك بحَوْل ولا بحيلة، وإن الحيلة فيه قليلة، واستمروا على هذا الطغيان، ولم يقفوا عند الإيمان. وعملوا في نوبة القليعات كل قبيح من الغدر والأسر والنهب ومولانا السلطان المنصور رابض

لهم كالأسد الهصور، وهو يهتم بأمر هذا الحصن من غير إظهار. وكلما أوقدوا ناراً لحرب أمدته من الهداية الربانية والأنوار.

وجهز المجانيق من دمشق ولا يعلم أحد إلى أين تسير، ولا إلى أين المصير. والرجال من البلاد مجهزة بأزوادهم ومقدّميهم وعددهم وهي كثيرة لا تُحصى كثرة. ومن الناس من يقول إن العزم إلى قلعة الروم، ومنهم من يقول: إلى غير ذلك. وكان قد جهز مولانا السلطان زرد خانة عظيمة من مصر، فيهاأحمال كثيرة من النشاب وغيره. وكذلك فرّق على الأمراء والجند نشاب يحملونه معهم ليحضرونه إذ طلب منهم. وجهزت الآت من الحديد والنفط ممّا لا يوجد إلاّ في ذخائره وخزائن سلاحه. كل ذلك سبق تجهيزه قبل سفره وتوجهه. واستخدمت جماعة كبيرة من الصنّاع الذين لهم خبرة بالحصارات ودرية بالمنازلات وجهزت المجانيق التي في القلاع المجاورة وجردّت رجالها من غير رهج ولا إظهار شيء. وحملت المجانيق والآلات على الأعناق والرؤوس. ورحل مولانا السلطان من على منزلة عيون القصب مُجداً، فنازل حصن المرقب في يوم الأربعاء العاشر من صفر. وللوقت حملت المجانيق على الأكتاف في تلك الأكتاف. وطاف البلاء بهذا الحصن من كل مكان، ونفذوا في حصاره بأعظم سلطان. ونصبت المجانيق الفرنجية

والقـرابغا. ومن جملة ذلـك مجـانيق فـرنجيـة كبـاراً ثـلاثـة، ومجانيق قرابغا ثلاثـة، ومجانيق شيـطانية أربعـة، بحيث إنها طـافت بها من كـل مكان واستمـرت ترمي في الحجـارة بمـا يتطاير شرره، ويتنوع ضرره. وأخذت النقوب من كل جانب.

وانفق أن المجـانيق الفرنجيـة كسّرت مجـانيق الفرنـج. وتقـدمّت الإسلاميـة إلى قريب القلعـة، فـاصلحت الفـرنجـة مجانيقهم ورموا على المجانيق الإسلاميـة، فكسروا بعضهـا، وقتل تحتها جماعة من المسلمين، ولا خـلاف في أن الحرب سجال، وما في كل موطن تسلم في الحرب الرجـال. وانتهى النقب السلطاني وحشي بـالاحطاب، واوقـد في يوم الاربعـاء سـابع عشر ربيع الأول، فعمـل النيـران في وسط النقب في البرج الذي في قـرنة البـاشورة. وزحف المسلمـون ليطلعـوا البـاشـورة. واشتـد القتـال وقصـد المسلمـون الصعـود فمـا تمكّنـوا، فبطل الـزحف. وانفصل هـذا النهار وسقط البـرج، وتـوهم الناس عُسـر التوصـل إلى الحصن، وبات النـاس في قلق عظيم لأجل ذلك لأن الحيلة من المجانيق بـطلت بسبب ما عَرَض، والنقوب انتهى الحال فيهـا، وما بقي تـدبير إلاّ من الله عزّ وجل.

فلما كان يـوم الجمعة، أنـزل الله تعالى لـطفه، وأجمـل عـطفه. وأنجـد بملائكتـه المقرّبين وجنـوده أجمعين. فنزلت

لنصرة المسلمين مسرعة، وخيّل الله للفرنج أن النقوب في بقية الأسوار على هذه الصورة، وأن النقوب تخرج إلى الخنادق ومنها إلى الأبراج، وتتعلق حينئذ في الأسوار.
وكانت النقوب قد أخذت من تحت الخنادق في أسربة إلى تحت الأبراج، والفرنج لا يشعرون بذلك. فأطلعوا على ذلك فسقط في أيديهم، وحلّ الخذلان في ناديهم، وتحقّقوا أنهم قتلى بغير شك، وأن أسيرهم لا يفك. وطلبوا الحديث في الأمان والمعاملة بالعفو والإحسان وبعد أن كانوا يؤثرون الموت على الحياة صاروا يؤثرون الحياة على الموت.
وتحققوا أنهم إن غفلوا عن أنفسهم فات فيهم الفوت. فطلبوا رحمة مولانا السلطان وعفوه. فاقتضى الحال أن مولانا السلطان رأى اختيار الغنيمة بهذا الحصن العظيم أولى من التطويل في حصاره، وإن التأخير له آفات، والأولى الاهتمام بما هو أت، وأن الفرنج الذين بهذاالحصن، إن سلموا من نار السيوف، لا يسلمون من نار الحتوف، فأجابهم إلى العفو والأمان، ووثقوا بأن قول مولانا السلطان هو أعظم من الأعيان. فسيّروا أكابرهم إلى الدهليز المنصور، ولم يسألوا غير الأمان على النفوس لا غير، وإلاّ يخرج معهم لا مال ولا سلاح متعلق بالحصن خاصة. ومن له مال يتعلق بنفسه يُنعم عليه به. وشفّع الأمراء فيهم، وقبّلوا الأرض بين يدي مولانا السلطان ورغبوا في إجابة سؤالهم. فأطلق لهم لركوب

أكابرهم من الخيل والبغال خمسة وعشرون رأساً وملبوساً. وما عيّنوه من مال لبعضهم، وهو الفان ديناراً صوريّة. وكتبت لهم أمانات. وصعدوا ومعهم الأمير فخر الدين المقرىء الحاجب، فحلّف الجسْطلين وبقية الفرسان، وسلموا الحصن جميعه في ثامن ساعة من نهار الجمعة ثامن عشر شهر ربيع الأول، وصعد الصنجق الشريف السلطاني المنصوري المنصور، وارتفعت السنة العالم بالأدعية لمولانا السلطان الذي أرتهم أيامه هذا الفتح الذي طالما تقاصرت عنه الهمم وشابت دون الإلمام به اللمم، وطلع المسلمون وأعلن أعلاه بالأذان والتسبيح، والشكر لله على إهلاك عبدة المسيح، وإخلاء ديارهم منهم، وأنهم لم تغن نيتّهم شيئاً عنهم وكتبت البشائر إلى جميع الأقطار وسيّرت به البريدية إلى كل جهة. وطلع مولانا السلطان إلى الحصن يوم السبت، واجتمع الأمراء الأكابر في خدمته، وضرب مشورة بين يديه في هدم القلعة أو إبقائها. فمنهم من أشار بهذا، ومنهم من أشار بهذا، ورأي مولانا السلطان يتّقد نوره نفاذاً، فرأى إبقاءها لحصانتها ومنعتها، وتحسينها وتزيينها، وصمّم على إبقائها حسرة في قلوب الكفار، وعضداً للحصون التي لها عليها وحق الجوار، ورتّب بها ألف راجل من أقجية وجَرْخية ومقاتلة، أربعمائة من أرباب الصنائع. ورتْب بها جماعة من الأمراء أصحاب الطبلخانات، وجماعة من البحرية

الصالحية والمنصورية مائة نفر وخمسون نفراً. ونقل المنجنيقات التي كانت ترمى عليها فصارت تُرمى منها. وكذلك الآلات والأخشاب والأحطاب والنُشّاب والزردخاناه، والنفط ومن كل شيء كان في الصحبة الشريفة من أصناف الحصن وآلاته، ورتّب لها خاصاً من بلاد كفر طاب ومدينة أنطاكية ومدينة اللاذقية والمينا وبلاد المرقب التي كانت خاصاً له. وما كان مقطعاً قبل الفتح. وجملة ما يتحصل منه عند عمارته ألف ألف درهم. ورتّب كُلَف عمارته ونفقات رجاله على البلاد إلى أن تعمر وتتراجع أهلها.

وصف قلعة المرقب

(تشريف الأيام والعصور ص ٨٥)

وهذه القلعة لها بالنجم مناط، وبالسحاب ارتباط، ولها على الدهر اشتراط، ولبروجها ببروج السماء اختلاء واختلاط؛ كم يسهو إليها السهى، ولولا المغالاة واستغفر الله لقلت تكاد تستظل بسدرة المنتهى؛ كأنما الرّياح لجيدها مخنقة، والغيوم لحضرها منطقة؛ تجاور البحر، وكمّل الله القلاع العشر بها، فأمست لنحر الأعداء عيداً فما هي إلاّ عيد النحر؛ مصونة السِّرح وكأنها ما تمناه فرعون على هامان من صرح؛ أحسن الله بها للأمة المحمدية الإدراك، وجعل الموهبة بها بمساعدة الملائكة حسنة الاشتراك؛ وما كانت الممالك لتفخر بأن لها حصن أكراد إلاّ وتزاد من هذه حصن أتراك؛ قد أمن بأخذها من بلاد الدعوة النازح والمقيم، وما كان ليكون لها كهف إلاّ ومن هذه لها رقيم، كم عاند أهل الكهف منها شيطان رجيم مريد، وكم شاهدوا منها كلباً باسطاً ذراعيه بالوصيد. كم سمح أخده بيت الاسبتار في عمارتها من الفضة والذهب بما يوزن بالقنطار بعد القنطار. وكم كانوا أخوة وما تحاسبوا في الانفاق عليها حساب التجار. ما سميّ بالمرقب إلاّ لأن الأهلة به ترقى ومنه ترقب. وما نقب بالفتكات السلطانية إلاّ لأنه

جــوهــرة قــذفــهــا الــبــحــر إلــى ذلــك الــســاحــل والجوهرة لا يضمها السلك حتى تثقب، تجاور رفعته الأفلاك بأحاديثها، وتجاور الفلك لتأثيثها وتجـاوز الحصر بمـا أباحتـه من سلب جماعتها وأخذ مواريثها.

ذكر السبب في توجه السلطان بيبرس إلى الشام

(سبط ابن عبد الظاهر: حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ٢٨ ـ ٣٣

قال: لما جعل عز الدين أيبك الجاشنكيري التركماني أحد الأمراء الصالحية، أتابكاً لشجرة الدر سرية الملك الصالح نجم الدين أيوب، طمع بالملك، وتسمى بالملك المعز، وتسلطن ثم خاف، فتراجع عن ذلك، إلّا أن اللقب بقي له، وبدأ يرتب في صفوف الأمراء، وقتل فارس الدين اقطاي قائد فرقة البحرية، وعلى أثر ذلك خرج بيبرس الى الناصر، صاحب دمشق وحلب، واجتمع عليه هناك بعض البحرية، وحرّض الناصر على أخذ مصر، إلّا أن الخليفة في بغداد توسط بين الناصر وبين الملك المعز، فرأى بيبرس من الناصر جفاء، ففر إلى صاحب الكرك الملك المغيث، وبمساعدته هاجم مصر مرتين، دون أن ينال كبير فائدة.

وكان إخفاقه في ذلك سبباً في فساد الأمر بينه وبين الملك المغيث، فبدأ بيبرس يغير بخشداشيته لصالحه على الساحل والغوريات، حتى وصل إلى قرب دمشق، فقاومه الناصر، فهزم جيش الناصر، ووصل المنهزمون إلى دمشق، فحمله ذلك إلى أن خرج بعساكره، ونزل بالمزيريب، ورحل

منهـا إلى بركـة زيزا وأقـام بها مضـاجراً للسلطان ومن معـه، وطالت مدة إقامته، ولم يظفر منه بطائل، فعدل إلى استمـالته بكل طريق، فلما استوثق السلطان منه، حضر إليه وتوجه معه إلى دمشق، في أعز مكانة، وضاعف لـه الإحسان، وأمـا من كـان معـه من البحـريـة فـإن الملك المغيث أوقـع عليهم الحوطة، وراسله الملك الناصر، فاصطلحا عليهما، وسيرهما إليه في القيد والسلسلة.

ثم إن الأخبار تواترت بطمـع التتار المخـذولين في البلاد عنـدما سمعـوا هذا الخـذلان، وعزمـوا على الحضور بقضّهم وقضيضهم، والملك الناصر نازل بالمزة، مشتغل بمـا لا يفيد من اللهو واللعب حتى إن مماليكه عزمـوا على قتله والسلطان يعرض عليه نفسه ويقول له: جرد معي جيشاً، وأنا أتوجه إلى التتار وهو لا يلوي.

فعنـد ذلك تـركه السلطان، وعـدل عنه، قـاصداً الـديار المصرية، فلما وصل إلى غزة تبعته جماعة كبيرة من مماليـك الملك الناصر، وخواصه، ووجد بها جماعة من الشهرزوريـة قـاصـدين الغـدر، ففتـك بهم وقتـل مقـدمهم نـور الـدين حسن بن بـدل، وكان قـطز، مملوك الملك المعز قـد استبد بـالملك بالـديار المصـريـة، لمـا أنس من ولـد المعز عـدم الفلاح، فكاتبـه السلطان، واستوثق منـه، فكتب إليه وأمّنـه،

ووعده بما اختاره، فحضر السلطان إليه.

ووصل الملك الناصر إلى قطيا، في أثر الملك الظاهر، ثم عاد. وقوي الخبر بقصد التتار البلاد الشامية، فاتفق السلطان والملك المظفر قطز وخرجوا بالعساكر المصرية والشامية والشهرزورية وغيرهم من المماليك الناصرية، متوجهين إلى الشام، لمصافقة التتار المخذولين، وكان التتار قد استولوا على البلاد، وملكوها إلى عين جالوت. ولم يزل الملك المظفر يحث السير، ويقدمه السلطان الملك الظاهر جاليشاً (مقدمة الجيش أو طليعته)، ومعه جماعة من العساكر، فكشف أحوال العدو، وأرهبهم بقوة عزمه.

ثم أن الملك المظفر وصل العساكر، واتفقت الوقعة بين الجيشين في العشر الأوسط من شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة، ونصر الله الإسلام، وقتل كتبغا نوين، مقدم جيش التتار، وولى العدو منهزماً، والسلطان الملك الظاهر في أثره، يقتل ويفتك، إلى أو وصل إلى حارم، وكتب إلى الملك المظفر بما اعتمده من قوة العزم، وشدة الحزم في تطمين البلاد، ودخل الملك المظفر دمشق وفتك بنواب التتار فيها.

وتمت هذه النصرة، وللسلطان الملك الظاهر فيها ايد الطولى، وهو بنسبتها إليه أجدر وأولى. ولقد حكي أن التتار

لما تسنموا الجبال هاربين، ترجل الملك الظاهر، وتسلّق خلفهم، ووصل سيفه بخطاه، وإن لم يقصره، وهكذا حال من لدين الله يؤيد وينصر وكانت شدة عزائم السلطان الملك الظاهر، ومهابة شجاعته قد سكنت قلوب التتار المخذولين: حكى الصاحب محي الدين يؤيد ذلك، قال: حكى لي الافتخار، والي بصرى، أن كتبغا نوين قال للملك الأشرف، صاحب حمص في محفل كبير: «بأمر من حملت حاصل شيزر لهلاون؟» قال: «بأمره»، قال له: «لا، لأن هلاون لم تجر له عادة بان يسير إلاّ إلي، ولا يطلب إلا مني، وهذا إنما فعلته منك دهاء وشجاعة، فإن كنت كما تزعم، فتقدم للبندقداري، فقد حضر جاليشاً لعسكر مصر». وفي هذا ما لا يخفى من هيبة الملك في قلوبهم.

ولما رجع الملك المظفر من هذه الوقعة، قاصداً للديار المصرية، شحنت نفسه وتكبر، فلم يزل يداريه، إلى أن وصلوا إلى قصر الصالحية، وكان الملك المظفر مغرى بالصيد، فلما دخل البرية قيل أن بعض من اتفق معه الملك الظاهر خبأ له أرنباً إلى أن توسط البرية، وأطلقه، فتوهم الملك المظفر أنه سانح، وإن لم يبارح، فساق وراءه، واتبعه الملك الظاهر، وقد تقرر مع أنص سلاح (هو الذي يناول السلطان سلاحه) دار قطز، ضربه، فضربه ضربة خائف وعاد

عليه الملك الظاهر، فأتم قتله، ودفن مكانه بثيابه، ولم يعرفْ قبره إلى الآن.

وعاد من كان توجه مع قطز إلى الدهليز والناس ينتظرون عوده، واتفق من سلطنة الملك الظاهر ما يذكر.

وهذه الصورة لم يحكها الصاحب محي الدين كذا لحسب الوقت، وعرض السلطان، بل مهد للملك الظاهر عذراً أوجب قتله، وعذراً صيره مثله وأن الملك الظاهر أمسك يد قطز وقتله من غير شريك في قتله.

ثم أن الأمراء دخلوا إلى الدهليز، وقد بسطت الطراحة، فجلسلوا يتشاورون فيمن يقوم بالملك وكان من جملة الأمراء جماعة كانوا معتقلين بثغر الاسكندرية، ممن اعتقلهم المعز وأخرجهم الملك المظفر عند مهم الجهاد: كالأمير سيف الدين بلبان الرشيدي الصالحي وغيره، وكان الرشيدي أكبرهم قدراً أعلاهم ذكراً. وحصل الاتفاق على سلطنته، وكان فارس الدين أتابك مرسماً (محتجزاً) عليه في دهليز الدهليز، فهجم وهم على هذا الاتفاق، فقال:

«يا أمراء، لو أن للملك المظفر ولداً كنت أنا أول من يقاتل على إقامته، والآن فقد فات فيه الفوت، واسة (قانون) الترك ان من قتل الملك كان هو الملك، وما غرر من قتل هذا الملك بنفسه ليكون الملك لغيره، وقد علمتم أن هذا

الأمير ركن الدين هو الذي قتله» ثم أخذ بيده وأجلسه على الطراحه، ولقب بالملك القاهر، ثم نقلت إلى الظاهر، فرأى الملك الظاهر للاتابك هذا الأمر، وعظم من قدره، وقاسمه الملك، وجعل تدبيرها إليه، وأمر الوزير بأن يجلس بين يديه، وكتاب الدرج على بابه، ورسل الملك لا يتعدونه، والإشارة إليه، واقطعه بمصر والشام ثلاثمائة وخمسين طواشياً، وجعل له صماطاً كصماطه وزاد إحسانه عليه حتى صار يمد القلاع بوافر نعمه، بحميلة كبيرة من قمح وشعير وتين وزيت وغيره، ما قيمته خمسمائة الف درهم وثمانية آلاف درهم.

ولما أراد الملك الظاهر تحليف الأمراء الحاضرين له قال له الاتابك: «لا، مولانا السلطان يعلم أن هؤلاء الأمراء الذين أخرجوا من الحبس بطالون، بلا أرزاق، مولانا السلطان يحلف لهم بما تطيب به نفوسهم من صلة الأرزاق، وتعظيم الشأن والأمن».

فحلف لهم مولانا السلطان، فطابت نفوسهم وحلفو له. ولم ينصه الصاحب محي الدين على هذه الصورة بل نقص منها ما فهم أن السلطان لا يؤثره.

ثم أن السلطان ركب قاصداً قلعة الجبل، فوجد الأمير عز الدين ايدمر الحلي قد وطأ له أمرها، وحلف النواب بها،

لأنـه كان تقـدّمه لهـذا السبب. ودخل السلطان، واستقـر في كـرسي الملك تاسـع عشـر ذي الحجـة سنـة ثمـان وخمسين وستمائة.

ولما استقر بـه، وشرع في تحليف من بقي من العساكر والأمـراء ممن لم يحلف، وقـرّر المصـالـح، ورتب أربـاب الوظائف وأمر جماعة من خشداشيته الصالحية، وأمر بالكتابـة الى القريب والبعيد كـاليمن والغرب وغيـر ذلك بـافضاء نـوبة الملك إليه، ونشر راية العدل والاحسـان، وأصـبحت الرعيـة به من الجور في أمان.

ولمـا استقـرت الأحـوال ركب. في صفـر سنـة تسـع وخمسين وستمائة، بشعار السلطنة، على العادة العباسيـة في السـواد، وعمّ بالخلع، وشق القـاهرة بهـذا الشعـار، ونثـرت عليه الدنانير والدراهم.

ذكر فتح يافا والشقيف

(سبط عبد الظاهر : حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ص ١٢٥ - ١٢٦)

أما يافا فإنها خالة المسلمين، قيل أن عمر بن عبد العزيز فتحتها، وقيل معاوية، ثم تغلب الفرنج عليها ونازلتها ملوك كالناصر صلاح الدين والعادل أخيه وغيرهم، ولم يتفق فتحها، وخبيء للسلطان.

وكان السلطان قد تجهز لما بلغه من حركة التتار المخذولين، وجه السير وكتب إلى نائب دمشق بتجهيز العساكر، فلما وصل الى قريب يافا بلغه من النواب المجاورين سوء مجاورة يافا وتعديهم، وإمدادهم الأعداء، وتعديهم، وأن صاحب يافا القمص هلك، وأقيم له ولد صغير، فحمل السلطان ما بلغه من تعدي قوم على منازلتها، فسألوا الأمان، فأجيبوا، ونزلوا كما اقتضاه أمانه، وشرع في هدمها، فهدمت، وأراح الله البلاد من سلعتها.

وأما الشقيف فإن السلطا كان قد تقدم إلى / العسكر الشامي بقصدها، والنزول عليها بالمجانيق، وأن لا يحدثوا أمراً غير الحصر، فرحلوا إليها وأحاطوا بها إلى أن وصل السلطان إليهم، فلما حضر جرى على العادة في مباشرة

الأمـور بنفسـه، ورتب المجـانيق، وأحـاط بقلعتي الشقيف القـديمة المستجدة، العساكـر وشـرع في القتـال، وحصـل الاجتهاد.

ولمـا أشرفت أحـد القلعتين، وهي المستجدة، خـربـوا بيـوتهم بأيـديهم، وحرقـوا حـواصلهم، وسلمـوهـا، وهـرب البعض وقتل البعض.

وأما القلعة الثانية، وهي القـديمة، فـإن العمل المتفـرق موفر عليها القتال، والجئت إلى أضيق الأحوال، وكان الديويه بعكـا قد سيـروا كتباً على يـد مسلم، يقـال لـه أبـو المجـد، وفيهـا/ أمايـر وإشـارات فـاقتضى إسـلام المـذكـور وسعـادة السلطان أن حملت إليــه وعــربت، وكتب بــالعكس ممــا تضمنتـه، وحملت إليهم، فتحيروا واعتمـدوا عكس ما كـانوا عليه.

ثم أن الفرنج سألوا على لسان الأمير بـدر الدين بيليـك الخزندار، نائب السلطنة بـأن يعفوا من القتـال تلك الليلة، وأنهم في غـدها يعتمـدون ما يـرضي السلطان، فلم يلو على ذلـك، وظن أنها مكيـدة، أو تدارك ثلمـة تهدمت بعمـارتها، وجد في القتال، وضاعف أسباب النكـاد، فلما تهدم سـورهم أو كاد وأحاط بهم النكال بما له من انكاد، سلموا بعـد أن كادوا أن يسلمـوا إنما إليه أسلموا، وسألوا الأمان فـأجيبوا وخـرجوا منهـا ونزحـوا عنها وتسلمها السلطان وهدمها/، ولم يبق لها أثراً.

ذكر الإغارة على طرابلس الشام

حسن المناقب السرية ص ١٢٦

هذا الحصن كان للإسلام قديماً، وآخر من كان به بنو عمار وحاصره بعض ملوك الفرنج عدة سنين، وبنى أمامه حصناً لطول مدة المحاصرة، فلما أعيى بني عمار ذلك تركوا فيه واحداً منهم، وذهبوا ليستنصروا ويستنجدوا، وكان الذي تركوه منهم بها مختلاً، فقام بأعلاها، ونادى الفرنج: «إن ادخلوا وتسلموا» فتسلموها. وآخر من ملكها بيمند بن بيمند الإبرنس.

ولما أفضت نوبة الملك للسلطان الملك الظاهر، صاحب هذه السيرة، وأيد الله به الإسلام. وصار يبلغه عن بيمند هذا من سوء الجيرة، وكثرة التعدي/، والتعرض إلى من يقصد أبوابه، حتى أنه ظفر برسل أتوا من الكرج، وقد انكسرت مركبهم، فأخذهم وأخذ ما على يدهم من الكتب الواردة إلى السلطان وسيرهم وسيرها إلى هولاكو ملك التتار، فأتى على نفوسهم ونفوس مرسليهم، إلى غير ذلك من مجاهرة، فاقتضت الغيرة الإسلامية، والحمية الإيمانية، أن تهيأ لقصدها، وأسر في التهيئة خلاف ما ظهر منها، وأقتحم إليها الجبال والأودية، وفرق العساكر الإسلامية، فأحاطوا بها الهلاك، وأسروا ونهبوا وأرعدوا وأبرقوا، واستولى على أكثر بلادها، وتركها بما أقتضاه الحزم وعاد.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

١ ـ ابن أياس: أبو البركات زين الدين محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ/١٥٢٣ م).

ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ت. محمد مصطفى الهيئة العامة للكتاب مصر ١٩٨٢.

٢ ـ ابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين (ت ٨٧٤ هـ/١٤٧٠ م).

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة الهيئة العامة للكتاب مصر ١٩٧٢/١٩٦٧.

٣ ـ ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٩٨١ هـ/١٢٨١ م).

ـ وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ط دار الثقافة بيروت.

٤ ـ ابن شاكر الكتبي: محمد بن أحمد (ت ٧٦٤ هـ/١٣٦٢ م).

ـ فوات الوفيات ت إحسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٧٣

٥ ـ ابن شداد: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٨٤ هـ/١٢٨٥ م).

ـ تاريخ الملك الظاهر باعتناء أحمد حطيط. المعهد الألماني للأبحاث الشرقية بيروت ١٩٨٣.

٦ ـ ابن الفرات: ناصر الدين محمد محمد بن عبد الرحمن بن علي (ت ٨٠٧ هـ/١٤٠٥ م).

ـ التاريخ الواضح الملوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات الأجزاء ٧ ـ ٨ ـ ٩. ت قسطنتين زريق ـ مطبوعات الجامعة ال(لأميركية في بيروت ١٩٣٦ ـ ١٩٤٢.

٧ ـ ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٧ م).

ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ١ ـ ٣ ت جمال الدين الشيال دار القلم ١٩٦٠. الجزء الرابع ت حسنين محمد ربيع دار الكتاب القاهرة ١٩٧٢.

٨ ـ أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم

شهاب الدين (٦٦٠ هـ/١٢٦٨ م).

- الذيل على الروضتين ت. عزت عطار الحسيني دار الجيل بيروت ١٩٧٢

٩ - أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م).

- المختصر في أخبار البشر دار المعرفة بيروت د. ت

(١٠) السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م).

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة دار احياء الكتب العربية ١٩٦٨.

(١١) السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١ هـ/١٣٧٠ م).

- طبقات الشافعية الكبري دار المعرفة بيروت د. ت.

(١٢) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/٩٢٣ م).

- تاريخ الرسل والملوك دار الكتب العلمية بيروت

١٣ - شافع بن علي بن عباس المعروف سبط عبد الظاهر (ت ١٣٣١/٥٧٣٠ م).

- حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ت عبد العزيز الخويطر مطابع القوات المسلحة السعودية الرياض ١٩٧٦.

(١٤) القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م).

- صبح الأعشى في صناعة الانشا ط دار الكتب المصرية ١٩١٣ - ١٩١٩.

(١٥) الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ/٩٦١ م).

- كتاب الولاة وكتاب القضاة ط رون جست مطبعة الأباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨

(١٦) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ/٤٤١ م).

- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار مطبعة النيل القاهرة ١٣٢٥ م

- السلوك لمعرفة دول الملوك ١ - ٢ - تحقيق محمد مصطفى زياده دار الكتب المصرية ١٩٣٤.

(١٧) النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م)

ـ نهاية الادب في فنون الأدب ظهر منه ٢٣ مجلداً عن دار الكتب المصرية ووزارة الثقافة والارشاد والقومي في مصر سنة ١٩٦٣ .

(١٨) اليونين: قطب الدين موسى.

ـ ذيل مرآة الزمان ٢ ـ ٣ ـ ٤ مطبعة دائرة المصارف العثمانية حيدر آباد، الركن، الهند ١٩٥٥ ـ ١٩٦١ .

ثانياً ـ المراجع العربية والمعربة

١ ـ أمين عبد السيد حكيم: قيام دولة المماليك الثانية ـ دار الكتاب العربي ١٩٦٧ .

٢ ـ باركر أرنست: الحروب الصليبية ترجمة الباز العريني ـ دار النهضة العربية بيروت ط٢ .

٣ ـ بدوي أحمد: الحياة العقلية في عهد الحروب الصليبية بمصر والشام القاصرة ١٩٥٣ .

٤ ـ بروكلمان كارل: تاريخ الأدب العربي ترجمة يعقوب السيد بكر ـ دار المصارف مصر ١٩٧٧ .

٥ ـ الترمانيني عبد السلام: الرق ماضية وحاضره.

ـ عالم المعرفة الكويت رقم ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٩ .

٦ ـ حمزه عبد اللطيف: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي ـ دار الفكر العربي مصر ١٩٦٨.

٧ ـ حسن علي ابراهيم: تاريخ المماليك البحرية. مكتبة النهضة مصر ١٩٦٧.

٨ ـ زيادة نقولا: دمشق في عصر المماليك.
ـ مكتبة لبنان بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ١٩٦٦.

٩ ـ سلام محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي.
ـ دار المعارف بمصر.

(١٠) سرور محمد جمال: دولة بني قلاوون في مصر.
ـ القاهرة ١٩٤٧.

(١١) ضومط أنطوان: الدولة المملوكية ـ دار الحداثة بيروت ١٩٨٠.

(١٢) العبادي (أحمد مختار): قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ـ دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٧.

(١٣) عنان محمد عبد الله: ـ تراجم شرقية واندلسية.

(١٤) لين بول ستانلي: سيرة القاهرة ترجمة حسن ابراهيم حسن ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠.

(١٦) موير وليم : تاريخ دولة المماليك ـ مطبعة المعارف مصر ١٩٢٤ .

ثالثاً : مراجع باللغة الأجنبية

1- Blochet: E

- Histoire des Sultans Mamlouts Par Mufazzelibn Abil Fazail

Texte Arabe Publié et Traduit en Français 2V. Paris 1912.

2- Demombynes: G.M:

- La Syrie à l'epoque des Mamlonks Paris 1922.

3 - Quatermère: E.T.

- Histoire des Sultans Mamlouks de d'Egypte 2V. Paris 1845.

فهرست الموضوعات

الفصل الثالث:

الفصل الرابع: